رواية

# البحر الرمادي

أحمد اتلشيخ

# البحر الرمادي

# البحر الرمادي

*

كان يسميني" مجنون البحر" وأسميه" القرصان" ، كنا نتلاقى كل صباح عند رصيف الميناء، نتضاحك أو نتشاتم أو نتسابق لنزول البحر، نطفئ فيه الأشواق المخبوءة في الأعماق. أملا في أن تسكن بملامسة الماء، كان يلازمني في كل الأوقات، ويشاركني السرحات، كأنه كان ظلي أو كنت ظله، لعلنا كنا في ذلك الزمان البعيد أشبه بتوأمين، غامت في الذاكرة تفاصيل الأحداث، لكني أتذكر كيف تبارينا في نسج الأحلام وتحذير أهل المدينة من مداومة القعود على واجهات المقاهي المطلة على البحر يتأملون الفراغ والأفق البعيد ويلعبون بالنرد أو يتبادلون السباب، كنا نرغب في تبديل الأشياء، تحريك الأشياء، نتجادل في ألوان الأشياء، ووسط عيون الخلق الودعاء كنا نبوح بالأسرار، كان يخالفني في لون البحر، أراه رماديا ويراني مثل قط البري مصابا بعمى الألوان.

بالأمس وقفت وحدي أتأمل أمواج البحر وهي ترتطم بكتل الصخر المرمية أسفل السور الحجري، تتكسر حدتها ويصيبها وهن قبل أن ترتطم بالسور، تحمل الريح الحائرة ذرات المياه المالحة رذاذا باردا له طراوة الندى في شمس الظهيرة، تصحو خلايا ذاكرتي الراكدة فأتذكر ما كنت أقوله محذرا من ذلك المصير المخبوء الذي أصابنا، فرقنا، هو البحر الرمادي يفصل بيننا، يخفيه زمنا ثم يعيده بعد أن يجدده، يصوغه من جديد بحسب هواه، بينما يخيفني ويتوعدني بأن أتحول إلى مجرد وجبة في بطون أحط أنواع الأسماك وأدناها، أتماسك رغم قلة الحيلة وأناديه كما كنت أفعل في الزمن القديم لأشهده على صدق روايتي آملا في الحصول على اعترافه برمادية البحر، لكن صدى صوتي يرتد، ونظرات الخلق تعبرني في إهمال، يتأكد لي أنني صرت بفعل الشائعات المحبوكة نكتة معادة للمرة الألف رغم سماجتها، أو سرا مفضوحا لكل خلق الله إلى حد السأم، أتلفت حولي لأستعيد صاحبي القديم الذي دار في فلك البحر الرمادي فلا أراه، أرسمه في خيالي وأناديه بكل ما تبقى لي من عزم فلا يصعب عليه حالي أو أسمع هسيسه المألوف مفلوتا من هدير دوامات البحر رغم ثقتي بأنه هناك، وقد تحول إلى قرصان حقيقي خلافا لكل تصوراتي عنه في الزمن الفائت، أخطو موليا لأمواج البحر ظهري وقد عقدت العزم على خصامه، أتعثر في ظل خطواتي وأكاد أرتطم بسور المدينة، ذلك الذي صرت أخشى عليه من تدبير البحر واحتمال أن يكون قد جهز نفسه لتدميره واغتصاب المدينة.

سكنت غرفتي المعزولة أسفل البناية واعتزلت الناس، هي ركن في قبو شحيح الضوء راكد الهواء، فيها أقرأ أكداس الكتب المصفوفة فوق رفوف الخشب العتيق، أراجع الخرائط، وأرسم في فراغات الورق الأصفر أقمارا، أصنع من الأصداف والقواقع وقشور الأسماك المهملة وجلودها المقددة نماذج لمدينة سكنتها مع صديقي القديم الذي علا نجمه بفعل الصدفة المدبرة ففارقني وهجر القبو والذكريات المشتركة، أمشي وحيدا في طرقات المدينة وأسرح بخيالي، أستعيد في مسامعي تلك اللهجات المهجورة وأحدث أرواح البشر الفانين عن الأشواق، يتحرك الهواء الراكد من حولي وترف في الذاكرة تواريخ المدن التي خرجت من دوائر الجمود وتألقت، أقرأ شهادة مجنون البحر الأول، أستاذي وملاكي المعشوق الذي ما زلت أتمثله وأترسم خطاه، ومن وسط أكداس المخطوطات أخرج شهادته المكتوبة بخط اليد الدقيق، أفردها أمامي وأسمع لنفسي سطورها باطمئنان الحافظ:

" في البدء كانت مدينة عطشانة وسط مساحات من الرمال الملونة، وكان الكهنة ودهاقين السحرة يستدعون الأمطار بالأضاحي والتعاويذ المدهشة، لكن الجفاف كان أقوى من مصادفات المطر، وكان طفل رضيع يكابد العطش، وكانت أنثى جف في ثديها اللبن فبكت لواهب الزرع سر الحياة والبلح، وكان نبع ماء تفجر قرب جذع نخلة مائلة، وكانت واحة وناس وقطعان إبل، وكان عبد صالح تطيعه الطيور والجبال والوحوش الضاربة يعيش في طرف المدينة فاستدعى للمدينة بحرا واستجاب البحر، وكانت أول مرة في تاريخ الدنيا المسكونة التي يذهب فيها البحر للمدينة لكنه ذهب، أزاح تلال الرمال التي تحيط المدينة وسكن حولها، بإشارة من عبد المدينة الصالح سكن البحر هادئا عند حد السور، تحولت المدينة إلى جزيرة مثمرة في وسط البحر، سقاها البحر وروى زرعها فنما وترعرع، وحماها البحر فعششت طيوره على فروع الشجر وكثر الحليب في ضروع المواشي وولدت النسوة واختفى الصهد وزال العطش، وصار العبد الصالح سيدا للمدينة وحاكما لبحرها المرهوب المطاوع حتى رحل العبد الصالح فتمرد البحر ولم يعرف حدوده، صار بحرا رماديا والناس في غفلة يتحدثون عن زوال زمان الجفاف وطول العطش، كانوا في حالة زهو بمجيء البحر، يبنون البيوت قرب الشواطئ ويطلون بالفتحات والنوافذ والأبواب ناحية البحر، ومن البحر دخل المدينة أول قرصان رمادي ليفتحها ويأمر الناس فيها بإعلان فرحتهم وتزيين الشوارع، ومشى في موكبه وسط الناس الودعاء وسماها مدينة الرماد، وبإشارة منه لونوها لتصبح كل بناياتها في لون الرماد، ووسط حراس قصره كان يجلس تياها مزهوا بطاعة الخلق وحسن الأدب، وتبغدد مجهول الأصل وأفتى أنه في الزمن الرمادي يكون للرماد وسط بحر الرماد حسنه الأخاذ، وسحره المكنون، ولم يعترض أحد" .

كان الدم المسفوح يلون الأرض بالأحمر القاني، يتلون الزرع الرمادي وشط البحر الرمادي الذي غرته سفن القراصنة، قالوا: لا يفلتنا من حرب القرصان سوى قرصان، وطلبوه ليطلع فما طلع من جدران قصر البغددة، لكنه ظهر من أصلاب الرجال الودعاء ومن بين أفخاذ النسوة الضارعات، قرصان من مواليد المدينة، كانت تغلي في عروقه قطرات الدم، وتتوهج في خلايا عقله الحيل والأفكار، وامتزج الدم المدافع بالدم المحاصر واحمرت الأرض وكفت المدينة عن استخدام اللون الرمادي في دهان البنايات، ولأن القرصان الجديد حارب بقلب رجل فرت البوارج وغاصت تطلب النجاة غواصات الغرباء، والآخر لابد في قصره القديم مشغولا بصدور النساء حتى طلعوا إليه وأخرجوه، مزقوه بأظافرهم وأسنانهم ورفعوا راية العصيان فركب المحارب الجريء موجة الزحام وصار على رأسها فارسا يسعى لإعادة الأشياء إلى أصولها الأولى، أبيض أو أسود، رجل أبيض القلب وآخر أسوده، كتاب أبيض وكتاب أسود، خبر أبيض وآخر أسود، رغيف للصغار أبيض غير رغيف أسود، زمن أبيض تملك فيه المدينة حق الحلم والتمني بعد زمان أسود عتمت فيه الأركان بالوعود المكذوبة المكررة، حتى الكذب قسمناه أبيض وأسود، ومن جديد انشغل الناس بتلوين المدينة لتصبح مدينة بيضاء تطل على بحر أبيض أو هكذا بدا لنا، ولم ننس لون الدم المسفوح فرسمناه نقطة حمراء على شكل وردة في طرف المساحة البيضاء لكتب الأطفال وراية المدينة، عشنا زمن الألوان الصريحة حتى بدا لنا أن عنب البنات صار أحمر تماما مثل ثمار البرتقال وحبات البطاطس، وتهنا في غيبوبة الدراويش من أثر القرع المتواصل لطبول الحرس، واختلط علينا أمره فما عدنا نميز في حضرته بين الانكسار والصعود أو حتى الهدم والبناء، صار لنا وبنا قدرا أبديا، بإشارة منه نذبح بناتنا العذارى في عيد وفاء بحره الأبيض الذي ملكناه له باختيارنا، ونسقي أرضه السوداء بالدم لتزداد سوادا وقد حازها بصكوك غفلة موثقة ناهبا كل حقوق الورثة من أشقاء وأخوة لأم أو أب وقرابات أخرى من كل الدرجات، وصار هو وحده، مالكا للفراغ ومانحا لحق التنفس، وفرسان المدينة، بإشارة منه أو بغير إشارة يسفحون ويقتلون ويسلبون اللقمة من أفواه الفقراء وأفواه الأطفال.

صار يعايرني بالفقر وأسميه الدجال، وصاحبي القديم بارع في التناسي أو يدعي النسيان، لكن الذاكرة حديد، كانت أمه تجلس عند مدخل الحارة وتنادي بصوتها المبحوح:

ــ الورور يا فجل.

كنا نشتري منها بالرغيف المخبوز وكوز الذرة الناشف ومكيال الحنطة ولا نبخل عليها بالبيضة الصابحة ثمنا لحزمات الفجل والجرجير وفجل البصل التلاوي وصدغ اللفت وقد جلبها هو محمولة على كتفه من غيطان الزمام، كنا نناديه بلا موارية" ابن نميسة" وكان يشاركنا سكة المدرسة ذهابا وإيابا، ورغم اتساخ ثيابه كنا نحبه ونتنافس على الجلوس جواره،

كان صاحبي بارعا في الحساب، يجمع ويقسم ويضرب دون الاستعانة بالورق كما نفعل، حتى الكسور وكسور الكسور لم يخطئ في حسابها، وربما بسبب ذلك أشاع عنه مدرس الحساب المغلول أنه يفعل ذلك لأنه يمسك حسابات أمه " نميسة" وكلها ملاليم وخردات وسحاتيت، كنا نتعاطف مع صاحبنا ونسخر من مدرس الحساب الذي يحاول إبعادنا عن ابن نميسة لأنه فقير.

لكن الزمان دار ودارت الأيام وتبادلنا أخباره في مصادفات عابرة:

ـ ابن نميسة نجح في الإعدادية.

ـ ابن نميسة دخل الجيش

ـ ابن نميسة خرج من الجيش.

ـ ابن نميسة دخل برج سعده.

ـ تزوج أجنبية وصار يرطن بالأفرنجي.

ـ تاجر في الجملة والقطاعي وركب الحنطور.

كان يتاجر في الممنوع ولا ندري، ويوزع المبيدات البشرية المستوردة وقد لصق عليها إعلانات تؤكد فعاليتها في القضاء على الحشرات والجراثيم المدمرة، كان يبع السلاح لإفساد طباع البشر ويسرب الأموال عبر البحر الرمادي ويرشو حراس الشواطئ لمساعدة أنصاره من قراصين الزمن، ولكن السر المستور انكشف، وابتاع لنفسه يختًا ودار في أركان العالم متأنقا بالمال والثياب الفاخرة، وتحدثنا في أمره زمنا، وخفنا من زمان يجيء يجف فيه الزرع والضرع ويزحف فيه الجوع فأخرجناه من حدودنا وأبطلنا تراخيصه بالنزول إلى الشواطئ وقتما يشاء وتابعنا أخباره حتى أشاعوا أنه تجنس وصار من طواغيت البحار البعيدة وأنه حليف للبحر الرمادي يتربص عند حدود أرضنا ويزهو بتجارة الذهب.

كان القرصان يرتدي عباءة التركي وثياب الشيخ الحافي وأربطه العنق المجلوبة والزعابيط الرمادية، كنا نغرق في أمواج الأبيض والأسود والأحمر ويسمح لنفسه بالرماديات، بل إنه أشاع أن لون الرماد نعمة، ولأن اللون الرمادي كان هناك لا يزال قابعا تحت الألوان وفي مناطق النشع والسترات المصبوغة وعلى سطوح الأرض المخلوطة، فقد طاب للبعض أن يتحدث مثله عن روعة الرمادي وخلوده، أن يطلي واجهة داره بلون الرماد القديم، وتنافرت الألوان، والنسوة يتبرعن بالمصاغ وكشوف الأسماء تعلن على الجدران التي تبعث إليها شمس المدينة أشعة رمادية، ويشح في الأرض البريق ويخفت صوت الأمواج وتتكاثر الشائعات على ألسنة الأعوان، يقولون إنه يرتب نفسه لترك المدينة سأما أو شبعا أو خجلا، ثم يشاع أنه مريض بداء عجيب لا برء منه ولا شفاء، يقولون إنه لفظ آخر أنفاسه وهو يوصي بإحكام الحراسة عند الشاطئ الغربي أو الشرقي، ويتردد على ألسنة الأتقياء أنه طار بنعشه وحط في صحراء جافة طاهرة وأظهر للمشيعين عشرات الكرامات، وتجرعنا خدعة العزاء

الرسمي ولطم الخدود على قرصان حي يرزق ببذخ وما زال في مكمنه يتسمع مع الأعوان كل همسة ويرقب كل خطوة نخطوها نحو قبره المزعوم، يتضاحكون هناك من غباوة الرجال وحرقة الأحزان في صدور النساء، والكل يسعى في هوس الحزن المصنوع يرددون الدعوات للراحل العزيز وأنا أصرخ فيهم محذرا من خراب بيوتهم وفساد أخلاق أولادهم ولا يصدقون، والفارس القديم ينعم بأصوات الجموع تطلب له في حياته المغفرة والرحمة وحسن المآل.

كان ينازلني عند الشاطئ "باطا" يفوز ولا انهزم، وكنت رغم الكبوات المتكررة لا أعترف بالهزيمة، يتلهف على اعتراف مني باكتمال نصره فأردد أنه ما زال في العمر بقية واحتمال لانتصاري عليه وأنه يلزم أن يفنيني أو أفنيه ليكون النصر لمن يتبقى فينا، كان يعرف وأعرف ويعرفون أن الدنيا لا تدوم لحي، تماما مثل أمواج البحر، تبدو صخابة فوارة في البدء ثم تصادف في رحلتها ما يجبرها على الاتزان أو الوهن، ربما تصل إلى الشاطئ بقوة الدفع الذاتي، لكنه هناك فوق رماله يحدث الذوبان ثم الانطماس، جربت مرارا أن أتأمل موجة بعيدة، قلت أتابعها وأرصد حركتها بإمعان ودقة، أطبع صورتها في ذاكرتي معزولة عن كل ما يحيطها حتى تصل إلى الشاطئ، وتوهمت أنني لو أفلحت في تثبيتها في الذاكرة قبل أن تتكسر أو تتبدد أكون قد أبقيتها ولو في شكل صورة أستدعيها فتطاوعني، وفكرت أنني لو دربت نفسي على فرز ذرات المياه ومتابعة ما يتناثر منها أو يدخل دوامات الأعماق فإنني بذلك أكون قد أفلحت في التعرف على مصائر أجزاء تلك الموجة الفانية فينتفي في تلك الحالة فناؤها في دوامات وأعماق أو سطح البحر، لكنها كانت مجرد محاولة فاشلة، ربما لأنني لا أملك البصر الحديد الأكيد، ربما لأن سطح البحر براح ممتد بلا حدود وأعماقه غويطة تسكنها الوحوش والأحراش، وربما تأكدت بعد تكرار تلك المحاولات من أن الفناء حادث مهما حاولت أو حاول هو، وأنه وإن بدا للصديق القديم الذي غيرت المصادفات مصيره أنه يخدعني فهو المخدوع، فقلت لنفسي: أشارك باختياري في الخدعة الشائعة وأذهب إلى قبره الذي شيدوه في الفراغ، تمثلت وجه القديم الذي أحببته ووجه الولد الآخر الذي تاجر في الممنوع، ولم أستطع أن أكتم الضحكة وسط زحمة الخلق الآتين لتأدية واجب العزاء الزائف، فتناثروا بالدهشة بعيدا عني وأنا أبوح وبحرص يتصنتون:

" كان يسميني مجنون البحر وأسميه القرصان، صار يعايرني بالفقر وأناديه الدجال، كان يلاعبني عند الشاطئ باطا، يفوز ولا أنهزم، بيني وبينه البقاء والفناء، يفنيني أو أفنيه، يشهد علينا بحره الرمادي وثوبه الرمادي وزمنه الرمادي والذاكرة التي تنكر ادعاءاتهم بموت الأحياء" .

## المستجير

*

أزاحهم عن طريقه وعدل طوق جلبابه بأطراف أنامل يده اليسرى، مسح على صدره في تأنق ثم لملم طرف عباءته ورماه على كتفه الأيمن متلفعا بها، خطا بضع خطوات متثاقلة يسبقه شمروخه القديم الممدود في خط عمودي مع الأرض يتوازى مع عوده الذي بدا لهم أنه انفرد وأوشك أن يتساوى معه في الطول، كان أولاد عوف قد تحيروا في أمر الرجل الكبير الذي حسبوه أكبر وأضعف من أن يقوم ويمشي على قدمين بعد سنوات من القعود والرقاد انتظارا لملاك الموت حسب ما كان يقول هو نفسه في المرات القليلة التي كان ينطق فيها بضع كلمات، كان المحروس الثاني وهو الابن الكبير للرجل يعترض بشدة على خروج الرجل من داره وحيدا، ويعترض أكثر على ما قال به من أنه ذاهب إلى درب أولاد شلبي لإخراج سليمان المنسي من داره التي يرابط على بابها العشرات من أولاد شلبي، كان المحروس ينكر ما سمع به من أن سليمان المنسي استجار بأبيه:

ــ يستجير برجل ضرير رجله والقبر؟

الغريب أن الرجل أقسم على الخروج وحده، كانت دقات طرف شمروخه الغليظ تنزل على الأرض فترجها رجا هينا، لكنه محسوس ومسموع الوقع أيضا، وكان يبتعد والعيون ترقبه في دهشة ورهبة منكرة أنه هو نفسه الرجل الذي انتظروا موته واستسلموا لعجزه ورقاده، بدا لهم أنه مارد من عالم آخر يرتدي ثيابه ويمثل دوره القديم الجسور القادر على الفعل مهما كانت العقبات.

دخل الجد عبد القادر الكبير درب أولاد شلبي على غير توقع، تقدم وحده أمام الجمع المتساند على الجدران والقاعد على أطراف المصاطب مستعدا للقيام لحظة مروره، فارضا على من عرفوه صمتا ودهشة، كانوا يرقبون في حذر من احتمال أن يكون اقتحامه للدرب بداية معركة لم يستعدوا لها بقدر كاف، أما أولئك الذين سمعوا عنه ولم يعيشوا زمانه القديم من جيل الشباب، فكانوا يتابعون خطواته بقدر من الاستهانة تداريه لحظة الدهشة التي اصفرت بفعلها وجوه وانحبست أنفاس واتسعت أحداق.

ــ أنا في عرض خالي عبد القادر عوف.

وصلت إلى مسامع الرجل الكبير نبرات الصوت المبحوح الواهن، كان قد وصل إلى أرض الجرن القديم الذي ارتفعت على أطرافه البنايات الجديدة لأولاد شلبي سكنا، ودكاكين

للبقالة، والجزارة، والأدوات المنزلية، والمقهى المزحوم الذي يطل على شبه الميدان الصغير المنتصب في أحد أركانه دوار عمدة الكفر من أولاد شلبي مبنيا بالطوب الأبيض بحيث يتميز عن كل البنايات في الكفر، وقف الرجل ليتأكد من صوت سليمان المنسي، لعل البعض منهم كان يرتجف هلعا ويستعيد ما كان من أمره في سنوات العراك المتواصل التي أذاقهم فيها مرارات الفقد وآلام الجراح قبل أن تنقلب موازين الأشياء لصالحهم، تنحنح الجد عبد القادر واستدار ليدخل زقاق أولاد المنسي، حسب بذاكرته التي لم تفقد مقدرتها على تقدير المسافات الخطوات اللازمة للوقوف عند باب سليمان المنسي المسكوك الذي انطلق صوته المستجير الواهن من كثرة الصراخ:

ــ أنا في عرضك يا خال عبد القادر.

ربما رآه سليمان من فتحة في جدار أو نافذة، دق الجد عبد القادر طرف شمروخه بعزم وقدرة، فانغرس أو كاد وأصدر صوتا وهزهز الأرض تحته، كان المنصور بن شلبي وأولاده وأحفاده يحاصرون الدار من كل جانب، كانت بنادقهم وشماريخهم تستند على الحيطان لتعلن لكل عابر استعدادهم للعراك، همهموا وزاموا، فز منصور شلبي من جلسته وواجه عبد القادر عوف ثم قال بلين من يملك تقرير المصير:

ــ أنا حلفت إن خرج من داره يكون آخر يوم في عمره.

ــ وأنا قلت يطلع يا منصور.

ــ ارجع دارك يا عبد القادر، العيال شرهم قريب.

ــ افتح بابك يا سليمان واخرج.

ــ يا عبد القادر عيب، لا هو من دمك ولا من لحمك ولنا عنده ثأر.

ــ اخرج يا سليمان.

قالها هذه المرة آمرا بحسم لا يقبل المزيد من النقاش، سمع الواقفون صوت ضبة الباب الكبير وهي تنشال إلى أعلى وأزيز محور الباب الذي ينفتح بعد خمسة أيام من الحصار، وأطل وجه سليمان مخطوفا ومرعوبا ومكذبا نفسه في ذات الوقت، ارتمى على الأرض أمام عبد القادر وصرخ:

ــ ارحمني يا خال، طلعني من دربهم.

ــ قم.

قالها ومد يده الخالية يساعد الرجل المرعوب على الوقوف، كان أولاد عوف هناك في أرض الجرن القديم يدمدمون ويغمغمون ويطلون بعيون متحفزة، أسلحتهم فوق أكتافهم وعصيهم وشماريخهم في أياديهم ونحنحاتهم تزهو وتتيه بكبيرهم الذي انتزع من الزمان العويل ظهيرة يوم من " برمهات" يحق لهم أن يباهوا به وأن يفاخروا مع أولاد الأصول في

كل الناحية، هز المنصور بن شلبي رأسه يائسا من جدوى الدخول في معركة كبيرة لا يضمن فيها نصرا مؤكدا، أشار بيده على أولاده وأحفاده وأتباعه ليوسعوا للرجل الكبير والمستجير به طريقا فوسعوا، تحرك الجد عبد القادر في ثقة الفارس خارجا إلى أرض الجرن القديم، واجـــه بوجهه الصلب بناية الدوار الجديد، انعكس في عينيه الضريرتين بريق شموخ قديم وتسمع في هدوء إلى أصوات أولاد عوف وجلبتهم وهم يوسعون له طريقا عبر درب أولاد شلبي، كـــان سليمان المنسي يتبعه والرجال من أولاد عوف يتحركون في زهو مسنود على هيبـــة الرجـــل الكبير التي كانت تسبق خطواته وتفرض الصمت على الخصوم القدامى الذين خسروا معركة اقتحمهم فيها ضرير قادر على إجارة المستجير.

مجلة القاهرة ــ أبريل 1985

## بنت البراري

*

بيني وبينكم الموضوع ليس مجرد أرض ودار واسم عائلة يوشك أن يمرمغه في الطين، كل هذا وارد ومحسوب حسابه لكنه ليس أساس الإشكال بيني وبينه، أقولها لكم بصراحة وبدون لف أو دوران: من يوم دخولها الدار انقلبت الموازين فيها، يقول لكم حضرة المفتش المحترم، أخي ابن أمي وأبي والذي ربيته كأنه أحد أبنائي أنه رآها في أرض البراري بينما كان يفتش فانخلع قلبه ووقع في هواها ولم يهدأ له بال حتى انتزع موافقتنا على زواجه من غريبة لا نعرف لها أصلا أو أهلا نرد عليهم مثل خلق الله.

ما علينا، فليس العشق كفرا، يعشق من يميل لها قلبه إنما ليس على حسابنا يا ناس، فتلك التي دخلت دارنا في ليلة من ليالي شهر " برمودة" لم تكن مجرد امرأة أخ علمناه وكبرناه وفضلناه علينا، وأولئك الغرباء الذين جاءوا لتوصيلها ليلة دخلتها عليه بعرباتهم الملونة ولم يتركوا لنا عناوين نلجأ إليها في بحثنا عنهم ليسوا بالقطع أهلها، لو كانوا أهلها لفكر نفر منهم في زيارتها، هل يرمي الناس بناتهم كما حدث وكأنما خلفوها ونسوها طوال تلك السنوات؟ ربما.. أقول ربما كانوا قد دربوها قبل دخول الدار على العيش برضانا أو رغما عن أنوفنا، وربما أيضا تركوها لتكشف لخلق الله ستر الدار وتفضحها أو حتى تخربها خرابا عاجلا.

كان هو في الأيام الأولى يباهي بجمالها، وهي بالفعل جميلة، لكنه جمال يصعب احتماله، ستقولون إن الجمال ليس عيبا وأن الله جميل يحب الجمال وأنا معكم، لكن الجمال ليس سلاحا للفتنة بين الرجل وأهله، لو قلت لكم مثلا إنها تتفنن في كشف كل ما تستطيع كشفه دون حياء وأنها تقول أحيانا كلاما مكشوفا على مسمع منا فنغرق في خجلنا بينما تجلجل ضحكتها في جنبات الدار وتتمادى، تفعل هي مثل هذه الأشياء بينما يكون هو في مأمورية عمل يفتش، وعندما يعود تلقاه وتطلع به إلى " المقعد" البحري، ربما توسوس له بما شاءت فينزل إلينا بعد ساعتين أو ثلاث وقد انقلبت سحنته وتجهم بحيث لا يكون على استعداد لسماع شكاياتنا منها وأن سمع اعتذر عن مزيد من الاستماع لأنه متعب، أو يهون الأمر على أمي وأبي ويطالبهما بأن يتعاملا معها بشكل طبيعي لأنها من بني آدم ولأنها غريبة تستحق الإكرام، نتبادل النظرات خلسة ونغير الموضوع حتى لا نعكنن على حضرة المفتش ونجهز أنفسنا لمزيد من الاحتمال، تأتي هي وتتعمد في وجوده أن تبدو محتشمة إلى حد التزمت، خافتة الصوت إلى حد الهمس، كانت أمي بعد طلوعها وراءه تمصمص شفتيها وتزفر في ضيق ثم تقولها:

ــ البنت دي ح تفقع مرارتي.

بدأنا نكره حيطان الدار وأبوابها، نكره أن نتنفس نسيمها مع هـذه الغازيـة الحويـة المدربة منذ تلك الأمسية من شهر " بؤونة" كان المفتش يفتش وكنا قد انتهينـا مـن عشـائنا وجلسنا وسط المندرة الكبيرة ننتظر غليان براد الشاي عندما دخلت هي بثوبها الرقيق محلولة الشعر، كان شعرها مفرودا وناعما ومسحوبا إلى ما فوق الركبتين بقليل، أسلاك من الـذهب رقيقة لا تخطر على خيال، لفت حول نفسها كراقصة محترفة فتماوجـت خصـلات الشـعر وتكشف الصدر والظهر والكتفين، توقفت فسكن الشعر الهائج وغطاها، كان أبي يجلس فـوق الدكة مشدوها، اقتربت هي منه في تؤدة، أزاحت الشعر عن وجهها وقبلته على جبينه ثم فـي فمه. همست بدلال طفلة عاشقة:

ـ بحبك يا با.. بحبك.

هم الرجل أن يقوم من قعدته ناسيا عجزه لسنوات عن القيام فلم يسـتطع، ارتعشـت أطرافه بينما تتراجع هي إلى الخلف وتطلق ضحكتها، دارت حول نفسها قبل أن تخرج مـن الباب وهي تردد على مسمع منا:

ـ يا راجل يا عجوز.. يا راجل يا عجوز عيب.

كنا قد بهتنا، حطت على رءوسنا طيور الدهشة، تسمرنا في أماكننا وأطفأ ماء بـراد الشاي المغلي نار الموقد، من يومها كف الرجل عن مشاركتنا الضيق من أفعالهـا المشـينة، تبدل الرجل الذي تخطى زمن الفعل وقعد لسنوات ينتظر النهاية في استسلام ويقين واستكانة، لعله تعلق بالحياة بعد قبلتها ولعله سئمها أكثر، لكنه تغير، كف عن مشاركتنا الحـديث كمـا تعودنا، أصبح يكتفي بالهمهمة والغمغمة والدمدمة، غابت عيناه أو زاغتا فـي عـوالم بعيـدة وانبنى بينه وبيننا جدار.

في البداية لم أفسر ما جرى من زوجتي، كنت قد اعتدت خجلها وحرصـها علـى أن تستر جمالها وتداريه، لكنها في بطء شديد كانت تتبدل بحيث أصبحت تجرؤ أن تقول كلاما ما كانت لتقوله، قلت لنفسي إنها تدخل مع الأخرى سباقا خفيا لتتأكد من امتلاكـي، كانـت قـد عاشرتني لسنوات وسنوات خلفت لي خلالها سبعة أولاد وغزا الشيب شعرها والسمنة عودها لكنها ذات مساء سألتني بدلال:

ـ أرقص لك؟

لم تنتظر ردي وهزت كتل اللحم فبدت لي بشعة إلى حد لا يحتمل، تركت لها المكـان محموما، بدأت مشوار التباعد عنها وزادت سعيا نحوي، سئمت لعبة المطاردة بعد أن كبرنـا وهدت الدنيا قوانا، فاتحت أمي في الأمر فضربت صدرها براحة يدها اليمنى وقالت في فزع:

ـ الملعونة فسدت أخلاقها، أتاريهم كل ليلة واقفين يتودودوا مع بعـض وأنـا أقـول لروحي أيش جمع الشامي ع المغربي؟

ـــ ليها أهل يترد عليهم.

قلتها وأنا أتذكر أهل امرأتي وعاداتهم وقلت إنه من الممكن أن أخلص منها تماما ما لم ينصلح ما اعوج من طبعها، ولكنه من يومها انكسر شيء ما كنت أحسبه ينكسر يومـــا بينـــي وبينها، كانت الأخرى هناك تنظر نحوي في شماتة من انتصر وتتبادل مع زوجتي الهمس قبل أن تنطلق ضحكاتها الماجنة دون خجل أو حياء.

جاء هو بعد أن فتش، طالبته أمي من أجل راحته كما قالت أولا ـــ أن يريح نفسه من السفر المتكرر بأن يسكن تلك المدينة الكبيرة حيث مقر عمله الأصلي فتعلل بأزمـــة الإســـكان فردت بحماس من يريد أن ينهي أمرا بأي ثمن:

ـــ نبيع فدان فدانين، وتاخد حقهم وتحوش لك أنت ومراتك أحسن سكن.

ـــ بتطردني يا مه؟

قالها محتدا ومحتجا ثم قام من جلسته وطلع إليهـــا فـــي " المقعـــد" البحـــري ســـمعنا ضحكاتها أولا ثم ضحكاته الصاخبة وتأسينا على ما صار إليه حالنا.

اعتدنا أن نتحفظ في الرد على أسئلتها الغريبة، كانت أسرار الدار هي كنز أمي الـــذي تحرسه طوال حياتها بالكتمان لكن الأخرى كانت تستفسر عن كل شيء حتى ضـــاقت أمـــي واغتاظت وبدأت في الشكوى:

ـــ الدار قلت فيها البركة، لا بيضة ولا حتة سمنة ومتوفرة ولا حتى القمح بيكفي خبيز الدار.

كان الهم يرتسم على تجاعيدها بينما تبوح بما صار إليه حال الدار فأخفف عنها وأنـــا أعرف أنه لا جدوى في وجود تلك الغريبة في صلاح الدار.

كانت زوجة المفتش تجلس بجواره وتتأفف، لم تتناول طعامها كما اعتادت ثم قامـــت، هم هو أن يقوم في أثرها لكن أمي قالت في رجاء:

ـــ استنى يا بني، أنا عايزاك.. هي مراتك حامل؟

ـــ لأ..

ـــ لأ ليه؟ دي بقالها كم سنة.. أخوك خلف بعد تســـعة أشـــهر وولاد عمامـــك كلهـــم مخلفين.. يكونش العيب منها؟

ـــ مش مهم خلف يا مه..

ـــ إزاي بقى لازم.. العيب منها وأنت بتداري عليها.. أكيد العيـــب منهـــا.. طلقهـــا واتجوز غيرها لجل نفرح بخلفتك.

ـــ أف..

قالها غاضبا بينما يقوم، لم يكن قد استقر على رأي إلى أين يتجه، لف حول نفسه ثم جلس على طرف الكنبة، قام وجلس ثم قام، نظر نحوي في كراهية، خفت أن يفكر أنني شامت في عدم خلفته، تململت في مكاني.. خرج من الباب ثم عاد، وجه حديثه لي في حدة وغضب:

ـ" أنا ح أستقيل م الشغل، حسيب الوظيفة وأقعد لك في الدار، فاهم، ح آخذ نصيبي في الدار وابني بيني وبينكم جدارا وأريح نفسي من وجع الدماغ.

لم أجاوبه.. تخيلته وقد عاش في الكفر وحيدا يعزق أو يسرح بالبهائم، يسقي ويحصد وهو الأفندي الناعم الأطراف، كتمت ضحكتي في عبي.. اقترب مني وأمسكني من طوق جلبابي وحاول أن يرجني فلم يفلح، شال يمينه وصفعني فقمت أمسك تلابيبه وكدت أضربه لكن صرخة أمي الملتاعة نبهتني:

ـ أقعد يا ضناي.. أقعد مطرحك.

جلست بعسر، خرج وهو ينهنه بصوت مسموع، ابتعد صوت نهنهاته في بطء، فزت أمي في مكانها واقتربت مني في محاولة للتخفيف عني:

ـ أخوك الصغير وغلط.. هو واعي لروحه؟ دي ساحراله.. كتباله يكره اللي له ويعشقها.

لم أرد، كنا قد علمناه وكبرناه، كنا نباهي به لأنه نجح ولبس وصار مفتشا يفتش، كنت أحسبه أخي وابني والآن يضرب.

دخلت هي المندرة وطالبتني بالعفو عنه لأنني أكبر منه، دخل هو في أعقابها مطاطئ الرأس فأمرته بأن يقبل رأسي ويطلب مني السماح.. كان يبدو طيعا معها ومنقادا لكل ما تشير به فكرهت انقياده وامتثاله لأمرها.. اقترب مني في محاولة لتنفيذ طلبها فقمت من مكاني ولم أمكنه من تقبيل رأسي.. كنت في داخلي قد سامحته بيني وبين نفسي وربما بيني وبينه أيضا، لكنني لم أقبل أن أجعلها حمامة سلام زائف بين أخوين لم يختلفا قبل دخولها الدار مرة.

باخ الموقف فخرج هو، في الليل سمعنا ضحكاتهما تجلجل في جنبات الدار.. تنفذ من سقفها وتطن في الآذان.. عجبنا للأمر وتناسيناه.

في الصباح التالي فاتحته أمي في الأمر قبل أن يذهب ليفتش قالت أمي:

ـ بيقول إن أهاليها قتالين وأنه مش خايف على روحه منهم وخايف علينا احنا.. أنا قلت له يخلصنا منها لجل الميه ترجع لمجاريها في الدار.

ـ وقال إيه؟

ـ ما ردش.

ساد صمت ثقيل ثم دوى صوت أبي على غير توقع أو انتظار مجلجلا بقوة في أركان الدار، لعله استعاد صوته القديم أيام صبوته وفتوته في الزمن الفائت عبر سواد الليل.

ـــ دا كلام أفندية يا ولية ما يخشش الدماغ.. يخلص منها واللي يكون يكون..

كان في أمره إرادة لا تقبل المناقشة وعزم جديد.. سكن قلبي وهدأ، تخيلته وقد شـــبع منها بعد سنوات من المعاشرة التي فاتت بلا ثمرة فابتسمت.

الأهرام ـــ نوفمبر 1985

## ملف ملكية المواطن مرتضى الماحي

*

محبوسا داخل الكرسي الأسيوطي كان يجلس، مهموما وعاجزا عن طرح المزيد من الأسئلة، كان الآخر خلف المكتب على الكرسي الدوار، يستخلص من داخل الملف أوراقا ثم يمزقها، كان في القلب جرح قديم ينفتح وحلم يتمزق مثل تلك الأوراق التي لا بد وأنها تخصه أكثر مما تخص أي كائن في هذا العالم. لكنه لم يجرؤ حتى على الاستفسار عن هذه الأوراق.. كان الملف يتضاءل على نحو ظاهر.. ربما على عكس الأمل الذي كان يتزايد كلما التقى بالرجل وسلمه ورقة أو شهادة أو مستندا مطلوبا لنجاح القضية، لم يكن الأمر مجرد قضية خسرها أو حلم لم يتحقق، بدا له في هذا اللقاء أن الوجه الذي وثق به واطمأن إلى قدراته قد تخلى عنه على نحو غامض، صحيح أنه قريب من الدرجة الثانية لكنه من خلال الجلسات المتكررة والمحاولات وسهر الليالي والمشاركة في الاهتمامات كان يبدو له أكثر من أخ، بل إنه كان يزرع فيه الأمنيات مؤكدا أن المكسب مضمون، خمس سنوات ومزرعة الرجاء تزهر وترطب القلب، لكنه في تلك الليلة لم يكتف بإبلاغه أنهم خسروا القضية بل إنه تحول وعلى غير توقع إلى اسطوانة مشروخة تهدف إلى تيئيسه تماما من جدوى الاستئناف أو التفكير، مجرد التفكير في الاستمرار في تلك الخصومة، زفر المواطن مرتضى الماحي كأنما ليعلن عن وجوده للآخر الذي لم يلتفت.. قام من جلسته، لعله فكر أن يقترب من الأوراق، يطل فيها أو يستجديها تفسيرا، لكن الآخر انتبه وجعل يضعها بالمقلوب بحيث ينكشف الوجه الخالي ويتوارى الوجه المكتوب.. همهم مبديا قدرا من الاستياء من تلك المحاولة الفاشلة لاقتحامه فأخجل المواطن مرتضى وأجبره على معاودة الجلوس.. غمغم:

ــ مجرد مسودات يلزم التخلص منها، سلم أمرك لله يا رجل لأنك لم تخسر القضية لغريب.. هو ابن عمنا في كل الحالات. بعد عنك أو قرب هو ابن عمك.

ــ أعرف.

ــ أنت تعرف حبي لك، لقد حاولت بكل الوسائل، نصيبك، لو كان هناك أي أمل في الاستئناف ما تأخرت أبدا..

ــ لكنك قلت مرة..

ــ دعك من كل ما كنت أقوله، أنا لم أخدعك طبعا.. كل ما هنالك أنني كنت آمل في أشياء لم تحدث، تكشفت أمور لم تكن في الحسبان.. أنت لا تعرف قضايا المواريث ودهاليز

أسانيد الامتلاك، أنت شاعر، ما لك أنت بهذه الأمور.. هي شغلي الشاغل طوال عمري وعندما أؤكد لك أنه لا أمل فيجب أن تتأكد من ذلك.. يا مرتضى.. الاستمرار في القضية تعميق للخلاف وتوليد لعداوات أنت في غنى عنها..

ــ طبعا.. لكن..

ــ أنت حر.. ملفك الآن جاهز.. فيه كل المستندات والتوكيل.. تفضل..

مد يده وأخذ الملف.. لم يفتحه، وضعه أمامه.. لم يكن لديه في هذه اللحظات أي شيء يقال.

خجلان من نفسه كأي مواطن شريف في ماخور أو مجتمع صغير من محترفي الفساد والإفساد، كان يدخل الزقاق والملف في يده، كان يستشعر دفئا غامضا وسط الرطوبة المسيطرة. لعله دفء دم الضحية نفسه لحظة النزف، كان الهواء باردا ولزوجة أرض الزقاق من أثر قطرات تحذره من إمكانية السقوط، كان يخطو على مهل ونقاط المطر متناهية الصغر تكشف عن وجودها أكثر عندما تتساقط في البؤر المتناثرة على أرضية الزقاق دوائر متباعدة ومتقاربة بشكل عفوي، كان عليه أن يحمي الملف بأوراقه منها ومن احتمالات السقوط وكثيرا ما كان يحدث وتنزلق قدمه أيام المطر، وربما لأنه كان حذرا أكثر من كل المرات السابقة أفلح في دخول البيت دون سقوط.

قالت هي بمرارة من فقد أعز عزيز لديه وهي تهيد صدرها براحتيها:

ــ إنه الموت وخراب الديار.

لم يعلق، سرح بخياله في البعيد، أكدت.

ــ اشتراه.. ابن عمك سوسة وبحره غويط، استأنف يا مرتضى.. لا تفرط في حقك وحق الأولاد.

ــ نحاول.

قالها بيأس لكنها واصلت:

ــ ما ضاع حق وراءه مطالب وحقك ظاهر مثل عين الشمس.

هز رأسه مؤيدا ثم شرع في خلع ملابسه فناولته المنامة ليرتديها ويتمدد بطوله على الفراش.. مسنودا بظهره على الوسادة وكأنه مريض يحتضر وعيناه غائبتان عن كل ما يحيطه من أشياء.

حدث نفسه قائلا:

" ربما يا مرتضى عملها أبوك، كتب الأرض لابن أخيه كي يحرمك من الامتلاك، لقد كنت دائما على غير هواه وإرادته، أرادك طبيبا ففشلت وفصلت من الطب، جاهد أن يساعدك لتكمل تعليمك في الآداب أو الزراعة أو حتى الحقوق فلم تسعفه، كنت تخدعه وتكتب الشعر

وهو العنيد الذي لم يعترض على إرادته غيرك، وكم هددك وحرمك من المساعدات في حياته، كنت أنت يا مرتضى نقطة ضعفه بحسب ما كان يعلن وكنت خيبة أمله أيضا، سحرتك دواوين الشعر وغيبك الدوران في جنبات المدن سعيا لكشف لم يكتمل، ربما يا مرتضى باع بالفعل وقبض الثمن، وربما كان إعلام الوراثة الذي جاءك مجرد إجراء لإكمال الصفقة" .

قام وقلب في أوراق الملف، بدا له أن الحق ضاع فعلا وأن محاولات الاستمرار في الصراع حماقة، وبدا له في نفس الوقت أن الاستسلام والسكوت عنه بلادة وتحير في أمر نفسه، مشدودا إلى رغبته الصادقة في أن يعيش ما تبقى من عمره في سلام مع الناس ولو كف عن الحلم في إحياء حقه المسلوب، أو الإفاقة والصحو وتجهيز نفسه لخوض النزال صارخا في وجه الكل أنه وريث شرعي لأب لا يجوز له التصرف في أملاكه على هذا النحو وهو في أيامه الأخيرة فاقدا للوعي والإدراك بحسب ما أكده الكثيرون من أهل الكفر، وكان في الذهن أطفال ومطالب ومسكن بائس وجيرة فاسدة وأجر هزيل، وكانت هي أيضا هناك بأحلامها في زمن يختلف لو استعاد هو حقه الأكيد باعتباره الوريث الشرعي الوحيد للرجل الذي أكد له البعض أنه باع في حضورهم بكامل وعيه وإدراكه وقبض الثمن.

عندما التقى بابن العم واضع اليد على أرضه وداره شعر بالخجل، ربما توهم أن الآخر يلومه أو يهدده إن هو استمر في قضية محسومة بحساباته على الأقل، كانوا قد توسطوا لكي يلتقي معه في جلسة هادئة، كان الآخر بملامحه الحادة ينظر نحوه باستهانة واستخفاف، يتحسس شاربه وكأنما يتوعد، قال أحدهم:

ــ الصلح خير، والدم لا يتحول إلى ماء يا مرتضى.

ــ طبعا.

أجاب هو.. لكن الآخر انتفض واقفا، وبحدة أعلن:

ــ الأرض أرضي والدار داري ومن يفكر في دخولها فسوف أدفنه فيها وهو حي.

لطف أحدهم صوته وهو يهدئ من عصبيته:

ــ لك حق.. كل الحق.. لكن الرجل جاء بنفسه ليؤكد لك أنه لا يطمع في كثير.

أضاف آخر:

ــ يمكنك أن ترضيه بما تجود به نفسك، وهو في كل الحالات من دمك ولحمك.

استحسن الكل الفكرة.. وأطرق المواطن مرتضى الماحي، شعر أنه متسول رخيص أو معوق صامت يستجدي الآخرون باسمه حسنة تفيض، تضاءل وانكمش وتصبب العرق من كل مسام جسمه فارتعش، قام على غير توقع منهم ومشى صامتا متغاضيا عن كل العبارات التي سمعها ولم ينشغل بتفسيرها أو الرد عليها.. وعند الطريق الزراعي وقف بآلية يطل على السيارات التي ترسل أضواءها من بعيد فتبدد العتمة المسيطرة.. ولا يدري كيف ولا متى

ركب تلك السيارة التي تتجه نحو المدينة، حتى الوجوه اختلطت وما عاد قادرا على تمييزها أو تسميتها لنفسه بينما يستعيد الأمر من أوله ويحاول تفسيره وقد ابتعد.

كان الملف في يده وقد حسم أمره تماما وكانت هي تبدو سعيدة لأنـــه صـــحا لنفســـه وأعلنها صريحة بأنه سوف يستمر في مشواره سعيا لاستعادة حقه لآخر نفس في عمره.

الهلال/ سبتمبر 1989

# الرجل الرمادي

*

حط رجل رمادي الشعر معفر السحنة والثياب ثقله فوق المقعد المسنود على جدار واجهة المقهى القديم، وبين قدميه انحطت حقيبة ملابسه لتبوح بالعسر ومشقة السفر، كانت على سحنة الرجل تقطيبة شاردة وهو يتأمل حركة الناس في الميدان، مشغولا على ما يبدو بتلك البنايات التي تبدلت، كان من الواضح أن المعالم الثابتة في ذاكرته قد زالت وتوارت إلى حد مذهل، لعلها تلونت في غفلة منه ومنهم بجديد لم يحسب حسابه، حتى مشاعر الارتياح التي حسب أنه سوف يجدها لم تظهر بوادرها، ونظرات الألفة بينه وبين الناس لم تحدث، كأنه كائن آخر غيره حط في المدينة من كوكب آخر بعيد، ولم يكن هناك غير ذاكرته التي تتشبث بكل ما يؤكد أنه ولد وتربى في منعطفات هذه المدينة، وأنه سعى في طرقاتها ودروبها صبيا وشابا، ولا بد أنه الآن يرى بتلك النظرة الخاطفة السرحانة وجوه أصدقاء قدامى وأقارب تجري في عروقهم قطرات من نفس الدم، ولقد ظن قبل المجيء أنهم سوف يخطفونه في أحضانهم قبل أن يتعرف عليهم مثلما كان يحدث في الزمن القديم.

أسبل عينيه وجرب أن يتأكد من صحو ذاكرته وقدرتها على رسم معالم الميدان كما كان في الزمن الفائت، غامت في الصورة المرسومة أجزاء وتنازعت لافتات الدكاكين التي غيرت واجهاتها عدة مرات، فتح عينيه ودقق في وجوه العابرين ليتعرف على واحد منهم لكنه لم يفلح، ظل ينظر بتركيز أكثر إلى الوجوه المتعجلة وتساءل بينه وبين نفسه إن كان الناس هنا قد أصابهم نفس الداء أيضا مثل الخلق هناك، هل ركبتهم نفس الهموم وتباعدوا في الزحام؟ ورد على نفسه بنفسه بصوت خافت وحزين:

ــ كنت أعرف أسماء من يعبرون الميدان في معظم الأحوال.

كان يكابد خيبة الرجاء في مدينة سعى إليها ليصالحها فأنكرته ولوت بوزها وتدثرت برماد عاصفة طارئة جففت في شرايين ناسها الدم وشاخت ملامحهم قبل الأوان، وتذكر أنه لم ينقطع عن زيارتها لأكثر من عامين وعاد ليراها وقد ركبها وكل ناسها الجن والعفاريت، فاجأه الساقي بوقفته والسؤال عن مطلبه فأفاق نصف إفاقة وتحير مرتبكا، لكن الساقي أسعفه واقترح:

ـــ مشروب مثلج يطرد الشرود يا أستاذ؟

أومأ موافقا، ربما لأنه اكتشف بالفعل أنه في حاجة ملحة إلى مشروب بارد يطفئ الأشواق ويرطب الجوف العطشان، لعله في تلك اللحظة كان يلوم نفسه لأنه جاء إلى مدينته القديمة التي أصبحت لا تخصه، قبل المجيء كان يلوم نفسه على التكاسل والإرجاء، كان مصلوبا بين نارين، الرغبة في التباعد والاقتراب من الولد، جرحه الموروث الذي تجسد بشرا سويا، والذي بحسابات كل العقول لا ذنب له في التواجد بتلك الكيفية في سكة عمره الذي ما استراح فيه يوما، هو أخ لأب فشل في إقناعه ولو مرة واحدة بفكره، وكان دائما ينظر إليه باستخفاف الأب القادر المالك الحر في أن يعيش بحسب هواه حتى في سن العجز:

ـــ" أي شوق للخلفة يا رجل وأنت في هذه السن" ؟

ـــ" ألسنة الناس مناشير تنهش سيرتك وأنت في الخامسة والسبعين" .

" أحفادك في عمرها يا رجل" .

لكن الرجل لاذ بصمت مكابر، وعلى عادته لم يعلق بأكثر من نظرة استياء، ربما لو زاد هو الجرعة لأهانه الرجل ووبخه وقالها على عادته عندما لا تعجبه الكلمات:

ـــ الرد فيك خسارة.

لعله خاف أيامها من دخول معركة خاسرة أخرى فكف عن المحاولة وهرب بالسفر إلى تلك المدينة الكبيرة التي يعيش فيها بغير اختياره، كان في حقيقة الأمر يفر من رؤية الطقوس التي دعاه الرجل ليشهدها، وكانوا هم هناك ينظرون وينتظرون بتشف واستهزاء كيف ينفذ الرجل العجوز غرضه ويحقق الفكرة التي كبرت في دماغه وشرع في التجهيز لتنفيذها، وكان هو يعرف أنه عندما يركب رأسه بإرادته الصلبة التي لا تلين فإنه لا يعرف التراجع أو يفكر فيه، عنادا أو رغبة أو تأكيدا لنفسه بأنه بالفعل مالك لوعيه، وأنه لن يتزحزح خطوة ـــ مهما كانت الاعتراضات ـــ عن حقه في تقرير أمر نفسه بنفسه.

حدثوه مرارا في زياراتهم الخاطفة عن زواج الرجل الكبير من بنت نواعم، كان يتسمع ويهز رأسه ولا يجرؤ على التعليق بكلمة وكأن الأمر لا يعنيه رغم إدراكه وإدراكهم أنه يعنيه، ربما كان يتشكك في أنهم يأتون إليه خصيصا لتحريضه أو استفزازه ليقول كلاما في حق الرجل الكبير، ربما يسبه أو يلعنه أو يشكك في قواه العقلية فيستديرون على أعقابهم ويرددون الوشايات عن الابن الجاحد الذي أخطأ في حق أبيه، طمعا أو جبنا أو رهبة من مواجهته، كانوا يثرثرون:

ـــ البنت صغيرة كما تعرف وسيرتها على كل لسان.

ـــ أبوك رغم كبر السن بصحته وقادر على الخلفة.

ـــ لو أنجب منها فسيظل المولود معلقا في رقبتك ليوم الدين.

ـ نفرض أنه سوف يعجز عن الإنجاب.

ـ لا تستبعد من بنت نواعم أي شيء، والشرع هو الشرع.

ـ سكوتك لا يفيد.

وعندما تكلم سألهم عن كيفية الخروج من المأزق وقد وقعت الفأس في الرأس، تبادلوا نظرات السخرية الممزوجة بالشماتة وهزوا الأكتاف، ساعتها سأل نفسه عن جدوى التعبير عن سخطه بالشكاية، وربما تأكد لديه أنه ومنذ الآن وحيد في بؤرة الحدث ونتائجه، وأنه ليس هناك إمكانية للخروج أو الفرار، لم يكن هناك أمامه غير الانتظار.

بعد موت الرجل بساعة أعلنت بنت نواعم أنها حامل في شهرها الثاني، وفي مندرة العزاء تسابقوا في التشكيك في دعواها وهو ساكت سكوت فريسة في قبضة فخ من صلب لا يرحم، وعندما حدث امرأته في الأمر قالت إن في الأمر لعبة مدبرة، وفسر هذا الأمر على أنه مجرد حسابات محسوبة أو غيرة نسائية من بنت نواعم التي تفوقها جمالا وشبابا وجرأة، لكنه مال إلى تصديق ما قالت به بعد سبعة أشهر من تلك الليلة إذ جاءته الأخبار بأن بنت نواعم وضعت بالفعل طفلا، وأنها هددت باللجوء إلى المحاكم ضده ما لم يتنازل عن ميراثه للطفل مقابل أعباء التربية، وبحساباته كان التنازل أهون من دخول المحاكم وأحكام النفقة التي تخصم من المرتب بحسب الشرع والقانون، أصبح الميراث في حوزتها باختياره، وما تبقى له من الأب غير طفل رآه ملفوفا ومحمولا على كتفها مرة. وكم كان يرغب على نحو غامض في رؤيته، مجرد رؤيته أو تحسس بدنه لكي يحكم بحسه الخالص إن كان بالفعل من نفس السلالة أو أنه كما يشاع ابن حرام طالع من حيث لا يعرفون ليغتصب حقوقه في الزمن الضائع.

حط الساقي زجاجة المياه الغازية الباردة أمامه فأعاده إلى المقهى والناس والصخب المباغت، كان سطح الزجاجة مغطى بذرات المياه الدقيقة التي تكثفت بفعل الرطوبة وبرودة السطح، لعله تذكر عطشه الشديد وهوة يتحسس سطحها بأطراف أنامله في لهفة المشتاق إلى مجر الاطمئنان إلى جرعة باردة في حوزته، لكنه رآه ماثلا أمامه بوجهه الرمادي وجلبابه الرمادي ينظر إليه بعينيه الرماديتين، وهو ينكمش داخل نفسه وينكمش، مذهولا ومرعوبا ومكتوم الأنفاس من الهول الماثل أمامه، ليس فقط لأنه نفس الأب الذي مات منذ سنوات وقد عاد الآن ووقف قبالته، وإنما أيضا لأنه عاد على نحو مغاير لصورته في سنواته الأخيرة، كان الرجل الرمادي قد استعاد شبابه القديم وحيويته القديمة وشاربه الهتلري وقسوة تقاطيعه، أزاح الأب بيده كف الابن المفرود عن الزجاجة وأخذها، احتواها بين أنامله الغليظة ثم رفعها ناحية فمه وابتلعها في جرعة واحدة تماما مثلما كان يفعل في الزمن القديم، وبدا له وهو يضع الزجاجة الفارغة أمامه أنه يلومه ويوبخه ويتوعده بالعقاب الشديد عن خطأ لا بد أنه اقترفه وهو غافل عن نفسه، كانت أصابع يده المفرودة تلتف حول الزجاجة الفارغة، وربما كانت

ترتجف ارتجافة محسوسة من رعب رؤية الأب الذي يبتسم باستهانة، نفس الابتسامة القديمة التي ترف على طرف شفتيه من ناحية اليمين قبل أن يستدير ويمشي مبتعدا وسط زحمة الميدان، وكان هو يتابعه بنظرة مشدوهة وهو يتباعد ويغطس في الطرف الآخر من الميدان ولا يظهر منه غير طربوشه القديم بينما تتداخل العباءة الرمادية في دوامات التراب المتناثر التي تعلو وتهبط على رءوس الخلق، وكان حلقه أكثر جفاف من كل الأوقات السابقة، ويده القابضة على الزجاجة الفارغة باستماتة وعجز تستشعر سخونة طارئة لها لسعة الجمر.

جريدة الحياة/ إبريل 1990

# صياد الحمام

*

في براح الدار كانوا يتسابقون، يبرعون في التخفي ويتضاحكون، كنت أسعى في أثرهم فيزوغون مني ويتباعدون، أقف مكاني حائرة أي الاتجاهات اختار فيظهرون تباعا ويفرون قبل أن أتمكن من اللحاق بهم، ونادرا ما كنت أكتشف مخابئهم في سراديب الدار الفسيحة وحجراتها المعتمة التي كنت أتخوف من دخولها وأكتفي بالنداء على كل الأسماء أطالبهم بالظهور لأمسك أي واحد منهم ليكون صيادا مكاني وأطير مثلما يطير الحمام، كانوا يضحكون ويتهامسون ثم يظهرون ويتجمعون حولي، يتفقون ويقررون أني لا أصلح للعبة "الصياد والحمام" يختارون منهم واحدا يلعب دور الصياد ويطيرون، أبكي وحدتي وعجزي عن مسايرتهم وأذهب إليها فتهدهدني وتهون علي الأمر وربما تصالحني بقطعة من الحلوى فأتبعها أصير لها ظلا، تحادثني بينما ترمي للطيور حبات القمح أو تحلب البقرات بأنني في الغد القريب سوف أكبر مثلهم وأجري بسرعتهم وأنني سوف أكتشف بالقطع مخابئهم وأمسك بهم وأطير مثلهم، كانت تسعى في جنبات الدار الفسيحة، تدخل القاعات المعتمة وفي يدها المصباح فأجرؤ على الدخول، ربما تكلفني بأن أناولها شيئا سقط منها فأفعل راضية وسعيدة، كان العرق يتصبب على جبينها ويبلل خصلات من شعرها الناعم، كانت تجلس في أي مكان وتتحسس ساقيها أسفل الركبتين، تضغطهما براحتيها وتكبسهما كبسا عنيفا متواصلا، تحدثني عن تلك الآلام التي أصابتها بسب اتساع الدار فأشعر بالحزن من أجلها ولا أستطيع الرد عليها، لكنها في المساء عندما يأتي أبي كانت تتأمله وهو يتناول وجبة العشاء وتشاركه الزهو باتساع الدار.

كان أبي يتباهى بداره ويقول أنها أكبر دار في البلد فتدعو له بالمزيد رغم العناء الذي كانت تكابده بسبب ذلك الاتساع نفسه، كانت تداري عنه آلام المفاصل وتتوهج ملامحها كلما حدثها عن ميراث الأولاد من الأرض وبراح الدار وتؤكد له اطمئنانها على مصيرنا في مستقبل الأيام.

ثقلت حركتها بعد موته، وبعد أن كان براح الدار لعبتهم وفرحتهم أصبح عبء أيامهم، كانت تكلف الواحد منهم بإحضار شيء من الداخل فيتعلل بكل الأعذار المعقولة وغير المعقولة، كانوا يتفننون في الزوغان من عبء قضاء حاجاتها المتكررة، كان الواحد منهم يتظاهر بأنه ذهب وبحث ولم يعثر على المطلوب فتتحامل هي على نفسها وتدخل وأنا في أثرها ثم ترجع وقد حصلت على مطلبها، كان دخول الممرات المهجورة والحجرات المعتمة

والأركان التي تفوح منها رائحة العطن قد أصبح عبئا يصعب عليهم احتماله، أدركت هي أنه من العسير أن تعتمد عليهم فتناقصت تكليفاتها لهم ثم انعدمت تماما، اعتادوا مثلما اعتادت هي أن تقوم بكل العمل وأنا في أثرها أسعى في صمت بليد.

كنا قد كبرنا بالفعل وتناقشنا في الأمر مرارا قبل أن نواجهها برغبتنا في العمل على راحتها ، جلسنا حولها وحدثها كبيرنا بحماسة فنظرت إلينا الواحد تلو الآخر وأنكرت تماما أنها تشعر بأي نوع من التعب، دافع هو عن سلوكهم المتخاذل في سنوات الطفولة، وقال إنهم كانوا صغارا وعقولهم صغيرة وأنه من غير المعقول أن نحاسبهم على أخطاء لم يقصدوها بوعي فأنكرت أنها تحاسبهم أو تعاقبهم وأن كل ما تشعر به هو عدم التعب، غضب هو وانفعل وخرج من الدار فلم تبد أي اهتمام، حدثها الآخر عن آلام ساقيها وذلك الورم الذي بدأ في الظهور فأنكرت في عناد، سكتنا واحتملنا قسوتها على نفسها وعلينا، تركناها على هواها حتى لا نسبب لها المزيد من الآلام التي تتجدد كلما دخلنا معها في حوار بلا جدوى.

سافر كبيرنا إلى بلاد بعيدة سعيا وراء الحلم الذي حدثنا عنه كثيرا في أن يعيش في بلاد أخرى، أن يطوف في أركان الدنيا ويشاهد، راسلنا مدة ثم انقطعت أخباره، تزوج الآخر من غريبة عنا وأقام جدارا يفصل حيزا من الدار اتخذه مسكنا ونادرا ما كان يأتي، قلده الآخر وأقام جدارا فانفصل حيز آخر من الدار، أما الذي يكبرني بعامين فقد باع ما قدر له أنه نصيبه من الميراث لغريب أقام جدارا شامخا فصل ما تبقى من دارنا التي صارت ضيقة إلى حد كئيب، كانت الجدران حديثة البناء تحوطها من كل جانب إلا مدخلا صغيرا باتساع باب قديم كان للدار القديمة نستخدمه في مواسم الحصاد لتخزين المحاصيل، كانت حركتها قد قلت تماما وكادت تنعدم في تلك الأيام، كنت أشقى في الحيز الباقي من الدار وأعود لأجدها في مرقدها لم تبرحه، ربما تطلب مني جرعة ماء أو لقمة تبلعها بعسر ثم تعاود الرقاد، ونادرا ما كانت تصحو وتحدثني عن تلك الأيام البعيدة، تذكرني بطفولتي وعجزي القديم عن اللحاق بهم في لعبة الصياد والحمام فأضحك وأعجب لأنها تذكر كل التفاصيل التي أكون قد نسيتها تماما، أضاحكها وأداري عنها تلك المرارات التي تغزو قلبي بسبب ما صار إليه الحال بعد رحيلهم أو انفصالهم عنا.

وفي الصباح كنت أراه واقفا على طرف جداره الشامخ يلوح لي بكلتا يديه ويشير نحوي على نحو فاضح فأشعر بالخجل وأجري هاربة إلى ركن القاعة الرطبة، أبكي وحدتي وانعدام سندي، أتمنى لو دخل دارنا واحد من أخوتي أتشكى له من أفعال ذلك الغريب وأطالبه بحمايتي منه لكنهم كانوا قد كفوا تماما عن دخول الدار، وعندما طرقت أبواب من يعيشون خلف الجدران حديثة البناء أنكرت زوجة أحدهم أنه موجود في البلد، وطمأنتني الثانية بأنه سوف يأتي لدارنا وقت وصوله من سفره وأبدت أسفها لأنها لا تعرف ميعاد عودته وأوصتني

في نفس الوقت بألا أترك أمي وحيدة مرة أخرى ففهمت أنها لا ترحب بزيارتي مهما كانت الأسباب، سألت عن الغريب المهاجر إلى بلاد بعيدة فلم يفلح أحد في التأكيد على البلد الذي يعيش فيه، قالوا لي عشرات البلدان كاحتمالات قائمة، سألت عن ذلك الذي باع نصيبه للغريب فأكد لي رجل لا أعرفه أنه قتل في وضح النهار في مكان فسيح وعلى مشهد من كل سكان البلد، عدت مهدودة ويائسة فوجدت الغريب قد اعتلى جداره يلوح لي ويخاطبني متوددا ومبديا استعداده لحمايتي لأنه صديق قديم لأخي الذي باع له حيز الدار، أذهلني أنه يعرف كل شيء عن حياتنا وأدهشني أن يعرض علي الزواج ليقيلني من همومي، ادعى أنه عشقني منذ طفولتي الأولى وأنه كان يشاركنا لعبة الصياد والحمام، كان على طرف لساني سؤالي عن أخي الذي ادعى أحد الغرباء مقتله والذي يقول أنه صديقه لكن لساني لم يجرؤ على النطق بالسؤال، تركت المكان ودخلت إلى ركن القاعة الرطبة أبكي وحدتي وقلة حيلتي، سمعت صوتها في الركن الآخر يواسيني ويوصيني بألا أقبل عرض الغريب الذي لم أفكر في قبوله، بكيت فقامت هي من مرقدها وتحسست جبيني، أحاطتني بذراعيها في حنو فشعرت بالأمان يسري في عروقي، جذبتني نحوها في قوة لم تكن تملكها طوال السنوات الفائتة فاندهشت وتساءلت إن كانت تلك التي تحوطني هي أمي بالفعل، نظرت إلى وجهها فوجدت ملامحها التي ألفتها وقد ازدادت ألفا وازدهارا، بدت لي من جديد صبية عفية قادرة، وعندما خرجت من باب القاعة وتبعتها كما كان يحدث في الزمن القديم بدا لي أن ما تبقى من دارنا أكثر اتساعا مما كنت أتصور، وبدا لي أيضا أن الجدار الشامخ الذي يسكن خلفه الغريب أقل طولا وصلابة.

وعلى نحو غامض سمعت صوت أبي يتباهى كما كان يحدث في تلك الأمسيات البعيدة باتساع داره وسمعت صوت أمي تشاركه الزهو وتحدثه عن عودة الأولاد وعنادهم وعدم تلبيتهم لمطالبها من داخل الدار، وكان هو يضحك بنشوة الأب فتتحول شكايتها منهم إلى فرحة بهم، ووجدتني أقف أمام قاعة نادرا ما كنت أدخلها وصوتها يناديني والمصباح يبعث شعاعه ليكون دليلي فأخطو إلى الداخل وألتفت خلفي فلا أرى الجدار الذي أقامه الغريب أو الجدران التي أقامها أخوتي، ويعاودني الإحساس باتساع الدار فأفرح رغم المكابدة في السعي داخل سراديبها وقاعاتها وأشعر بإمكان نجاحي في الجري بسرعتهم وملاحقتهم في لعبة الصياد والحمام.

إبداع/ مارس 1986

## تخفيف المواجع

**ش. أ. ب:**

أفزعني نفس الحلم المقبض فقمت قاعدا على طرف الفراش أتحسس رأسي وأتأكد من صحوي، قلت لروحي أن في الأمر خدعة دبرها عقلي الباطن بهدف إرهاب عقلي الصاحي من واقعي الذي أعايشه بعسر مؤمنا بأن الصبر مفتاح الفرج.

قلت أزور صاحبي الباحث في علم النفس الاجتماعي وأستفيد من خبراته في حركات العقل الباطن رغم خلافنا المتواصل حول قدرة الإنسان على الاحتمال، وأنا أرتدي ملابسي وأتأمل صورتي على سطح المرآة قلت لروحي: إنه حتى وإن كان القميص متسخا والحذاء مقطوعا فإنني ذاهب إلى صديق قديم عاقل لا ينشغل مثل السفهاء بمثل هذه الأمور، وأنا خارج سمعت صوت أمي التي لم تلتفت ناحيتي وهي تجلس فوق كرسيها ذي العجلات في نفس مكانها بين النافذة وحجرة المعيشة:

ــ ماذا جرى لك يا ولد؟ صحاني صراخك من سابع نومة، هل فشلت تلك الحبوب التي جلبتها مؤخرا في تهدئة أعصابك؟

ــ عفوا يا أمي إن كنت قد تسببت في إقلاقك، إنه نفس الكابوس يحاصرني ويفقدني القدرة على السيطرة على نفسي.

كنت قد فتحت باب الشقة بالفعل وأخرجت ثلاثة أرباعي منها وأبقيت الربع الباقي داخلها، لكن خروج ثلاثة أرباع الجسم لا يعني اكتمال الخروج أو تحقيق الهدف المنشود، ذلك أن أمي قالت محتجة لتستعيد ما خرج مني وأدخل:

ــ اسمع يا ولد، لن أحتمل خروجك من البيت في أي وقت بحسب هواك ورغباتك الفاسدة، هناك نظام ويلزم عليك أن تحترمه.. ماذا قلت؟

كنت أقف في الصالة مطرقا في حياء، انتظر منها إشارة أو أن تصدر أمرا لأنفذه، هكذا عودت نفسي في السنوات الأخيرة، أطيعها تلك الطاعة الضريرة حتى لا تتهمني بالعقوق وفساد الأخلاق، أحيانا تعاملني بحساسية زائدة، تكف عن معاتبتي وتكتفي بالبكاء وأخوف ما أخافه أن أكون سببا في بكاء يؤخر شفاءها من مرضها الذي طال، كان طبيبها المعالج قد حذرني من خطورة الأمر مرارا:

ـ أفهمني، أن أي انفعال زائد سوف يؤثر على مراكز الإبصار في المخ، والبكاء المتكرر مصيبة فادحة، الأمل الوحيد يتوقف على نجاحك في تفويت شهر بالتمام والكمال دون بكاء ناتج عن انفعالها المكبوت، مع الأخذ في الاعتبار أن يتم ذلك دون تحذير معلن أو تخويف، اجعل الأمر يبدو طبيعيا ومألوفا، فلو وصلت إلى المراكز العصبية المتصلة بخلايا الإبصار في المخ مخاوف من هذا النوع فتأكد أن كل المحاولات الطبية والنفسية سوف تفشل في علاجها، حاول أن تجعلها تكف عن البكاء لشهر متواصل دون تحذير معلن أو خفي من مخاطر البكاء، وإذا حدث وبكت هي فلا تنزعج، اجعل الأمر يبدو مألوفا وعاديا أمامها ثم أبدأ الحساب من جديد، ولأنها حالة نادرة تماما فأنا أشفق عليك وعليها لأن احتمالات إصابتها بالعمى النفسي بالإضافة إلى شللها الوقتي قائمة.

من يومها وأنا أحاذر وأطيع وأحلم باكتمال شهر قمري دون دموع لتبقى مبصرة، مخاوفي تحاصرني وتنفذ إلى نخاع النخاع مني لا تبرحني في اليوم ساعة، ألهث في مشوار عودتي إلى البيت متلهفا لأطمئن عليها، أتعذب بالخوف المتواصل ومحاولات إزاحته دون أن أفلح، يبدو لي الأمر في ساعات الصفاء الذهني مرسوما بدقة لأظل محصورا ومحاصرا بالترقب، تتبدد طاقتي دون مقابل وأنا أحاول أن أتصالب على نفسي لأحسن تنفيذ وصايا طبيبها الذي أتشكك كثيرا في أن يكون قد اخترع كل هذه التفاصيل ونسجها من حولي بإحكام كي ازداد طاعة وتزداد هي مثله استبدادا وقد وقعت في فخ ضرورة البر بها، لعلها دبرت الأمر مع الطبيب في غفلة مني وإن كانت أمي، ربما كانت ترغب في تعذيبي لأنني أحمل ملامح وجه أبي وبعض طباعه كما تقول واسمه، أستعيد تاريخا طال بينه وبينها مارس خلاله سطوة الرجل وكبرياءه وشموخ روحه وما ملكت أيامها الجرأة على المحاورة أو الاعتراض.

**الباحث:**

حدثني عن كابوس يطارده فتذكرت حالتي، يبدو أنه قد أصبح لكل واحد منا كابوسه الخاص، ورغم محاولاتي لرصد البدايات التي كمنت في الوعي الباطن ثم انفلتت منه على شكل كوابيس متباينة وإن حاصرتني في توقيت محدد من أمسيات الأربعاء لأقوم مفزوعا بتأثيرها وأحاول أن أقارنها بكوابيسه الهمجية التي تصيبه في أزمنة متباعدة أو متقاربة ودون انتظار بسبب تلك الفوضى الضاربة في حياته والتي انشغلت بتسجيل بعض تفاصيلها وأرجفت مخاطرها إلى ما كان يعانيه في منطقة سكنه وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة اليقين العلمي إلا أنها مؤشرات يصعب الاستهانة بها مثل:

( أ ) عاش وسطهم ولم يتراجع رغم التحذيرات التي تلقاها من فساد أخلاق كثرتهم، كان يدعي أن الاختيار ترف لا يملك أدواته، لكنه بعد عام واحد فسدت أخلاقه وصار يتكلم

بلهجة سوقية منفرة ولا يخجل من ترديد الشتائم التي لا بد أنه انبهر بها أو انساق معهم في تيارها دون وعي.

( ب ) كانت تعتريه في بعض الأحيان حالات خجل لا أملك تفسير بواعثه لو سأله غريب عن عنوان مسكنه.

( ج ) وصف لي مجموعة معارك تستخدم فيها أسياخ الحديد والشفرات وكل أنواع السلاح الأبيض دون أن تبدو عليه علامات استهجان أو رفض لتلك القسوة ضد الآخر.

( د ) حدثني عن معركة طارئة حدثت بين امرأة سمينة تخطت الأربعين ورجل من سكان المدخل المقابل لمسكنه كان يقف في نافذة الدور الأول وقد ارتدى فانلة بحمالات لونها أزرق وبنطلون منامة برتقالي وكيف أن الرجل تطاول على المرأة وهددها بالنزول إليها ليفعل بها الأفاعيل فخلعت ثيابها الخارجية والداخلية مزهوة بجرأتها وراحت تخبط براحتيها على أماكن من جسدها العاري فترتج كتل الشحم واللحم، وأنه تذكر ساعتها خنزيرا مسلوخا كان قد رآه مرة لا يدري أين ولم ينس رائحته الفاسدة أو أسراب الذباب التي كانت تحط فوقه أو تحوم حوله.

هوس ــ حدثني عن ولد اسمه عشتوته هارب من مستشفى الأمراض العقلية ولم يذكر أي مستشفى على وجه التحديد، وتشكى من وقفته الدائمة أمام مدخل مربع المساكن الذي يستعمله وقد شهر سنجة صدئة أو سكينا طويلا، وأنه كان مضطرا ليحبس أطفاله في المسكن ويمنع زوجته من الإطلال على الشارع من خلال النوافذ أو الشرفة حتى لا تتعرض لنظراته الوقحة أو إشاراته البذيئة.

أجلسته ذات مساء وطالبته بأن يهدأ ويكرر على مسامعي ما رآه في كابوس الليلة الفائتة، وقد تأكد لي أنه قال نفس الكلمات وغاص في نفس التفاصيل المملة وخطر لي أن أتوصل من خلال ما ذكره إلى نواة علم جديد ربما يكون اسمه علم نفس اجتماع قلة الأدب، كان صوتي الرتيب يسترجع بآلية ودون وجع:

ــ رأيته في المنام يجري وفي يمينه سكين الذبح وقطرات من دمي تتساقط على قبضته وتلمع فوق نصله الصديء والخلق يحيطونه من كل جانب للفرجة، كان يصرخ أو يهذي ولا أملك القيام والجرح في عنقي شاملا حنجرتي وفاصلا لساني عن وعي عقلي، أسمعه وأراها وهي تراني مرميا عند مدخل مربع المساكن وقد خرجت من عراك دموي خاسر لأنني لم أواجه خصمي بأكثر من الرقاد على الأرض راضيا بأن أكون مشروع قتيل مقابل العفو عن أطفالنا، لكن الذي أفسد كل شيء بالنسبة لي هو أن رجاله اختطفوهم لا أدري على أين فقررت أن أتحامل على نفسي وأقوم غير عابئ بنصل سكينه الذي انحط على عنقي نصف المجزوز مرتكزا بركبتيه على صدري ومزودا أمي وهو يقسم تفاحة آدم نصفين،

ساعتها رأيت في عينيه وجه العبد الحبشي ورأس الحسين المفصول من أجل جرعة ماء لطفل يبكي من شدة العطش، حزنت من أجل نفسي ومن أجل الحسين أيضا، ورأيت أمي وقد قامت تحتج على سكتة الرجال الذين احتفظوا بشهامتهم ونخوتهم لزمن آت، وصراخ زوجتي الملتاع يدعوني لأن ألحم رأسي المفصولة بإرادتي وأنا أفكر بما تبقى فيها من بقايا حياة: إن الطبقة التي خرجت منها تخون جثة مرمية وسوف تتخلى عن تكفين ميت، وبما تبقى في خلايا العقل من دفء الحياة صرخت أوصي زوجتي بأن تحرس أطفالي ولا تستسلم مثلما فعلت وعولت على شهامة أولاد بلدي.

قلت له إنه كابوس دموي لا يليق بكائن متحضر فوافقني وراح يستدرجني لأقص عليه قصتي مع الأربعاء الفائت:

**ش. أ. ب:**

حدثني عن كوابيس الأربعاء فاكتشفت أنها مجرد أكاذيب يبرع في نسج أطرافها ليجاريني ويجعلني أصدق دعواه بأنه مصاب بحالة اكتئاب مزمن بسبب العوز الفعلي رغم ظروفه الأفضل، لعلها حيلة يلجأ إليها ليبعد عن نفسه حسدي الذي يتوهمه، وإن لم يكن في الأمر من ناحيتي أدنى حسد أو ضغائن ضده، لأنني إن قارنته بعامل المجاري الذي يأتي لتسليك البالوعات الطافحة والذي يحدد المبالغ المطلوبة نظير القيام بعمله ويحصل عليها دون أدنى مناقشة من سكان المربع، لو قارنته به لخسر بجدارة، لكن المسألة تتعلق أولا وقبل كل شيء بالصدق الذي لم يعتده منذ البداية لسوء تربيته وتخلف البيئة التي طلع منها، وقد وصل الأمر معه إلى حد أنه يمسك شعر رأسه ويحاول البرهنة على أن ما أصابه من شيب وهو في هذه السن لم يأت من فراغ، أجدني مكرها على التظاهر بتصديقه في كل ما يرويه من أكاذيب تكشف أنه عنصري سفاح يكتم في أحشائه رغبة تدمير تفوق كل تصور، همجي بطبعه وشاعر بالاضطهاد إلى درجة كراهية العالم من حوله، ولولا أنه صديق طفولة وأعرف ما خفي من أسراره ما صاحبته أو احتملته وانشغلت بروايته عن تلك الأمسيات الأربعائية:

"رايته مرتديا جلبابه الفضفاض وممسكا في يده حقيبة، حطها في منتصف الميدان الكبير، وكنا في وضح النهار والشمس تلسع الأبدان، أخرج من حقيبته مدية يلمع نصلها في نصوع ويعكس ضوء الشمس، رسم دائرة من حول نفسه ودار داخلها ثم صرخ بصوته المجلجل:

ــ ميداني أيها الجبناء، ميداني بوضع اليد، ومن يتقدم ليدوس أرض ميداني فسوف أصفي دمه.

كان الحيز صغيرا في أول الأمر وبدا لي أن الناس لم تنشغل بأمره، كانوا يطلون ولا يتابعون باهتمام، لكنه رسم دائرة أكبر بنصل مديته على الأرض وردد نفس الكلام، كان يبدو من فرط اتساع الميدان نملة عاجزة عن تأكيد وجودها وسط الصخب والزحام، لكنه بعد ساعة أو ساعتين من عمر الزمان كان قد وسع حيزه المسكون والمحمي بحدود رسمها هو نفسه دون اعتراض من أحد وجعل يردد نفس العبارات ويخوف كل من يجرؤ على اقتحام الخط المرسوم، تحول إلى نحلة تزن في الآذان ثم تكاثر وتضخم واستخدم مكبر صوت جهنمي بألف سماعة مخفية والناس يتباطأون، يتطلعون ويمشون إلى شئونهم، ثم يجرءون ويقفون، وعندما يدور هو إلى حدوده المرسومة قريبا منهم ويخوفهم بطرف نصل مديته فيتخوفون من مواجهته ويلوذون بالبنايات القريبة مبتعدين عن شره الذي فرض نفسه عليهم على غير توقع، ودون وعي وجدتني في مواجهته مرعوبا من نصل المدية وإن كنت لا أنوي التراجع، كان يطوحها في كل اتجاه وأتباعد عنها دون انهزام، يهدد بتمزيق الصدر وتشويه الوجه ولا أخشاه.. لعلني كنت أراه بحجمه الذي بدا لي صغيرا في أول الأمر، ربما كنت الوحيد الذي انشغل به في تلك الظهيرة والكل سارح لأمر يعنيه، ولعله أدرك أن جرأتي تستند إلى وعي بحقيقة أمره فتباعد عني وإن استمر في توسيع حيزه إلى حد أن رسم دائرة كبيرة هي كل الميدان تاركا للناس أرصفة يطلون منها وقد انحشروا مزحومين يطلون بعسر من خلال الدائرة التي استحالت إلى قفص حديد من تلك التي تستخدم في حبس حيوانات السيرك، هو في الداخل بإرادته يتحكم في حركة الناس ويتهددهم، يمد الذراع حامل المدية الذي تحول إلى عشرات الأذرع ثم مئاتها وفي كل منها مدية، تضخم على نحو مفاجئ وبدا لي ولهم أخطبوطا له ألف ذراع والناس تتراجع وتتوارى في مداخل العمارات وفوق سطوحها وداخل الشقق وفي الشوارع الجانبية رعبا وقد انعقد لساني وتاهت نظراتي وهي تفشل في إحصاء تلك الأذرع ولو على وجه التقريب دون جدوى، ولا بد أنه أدرك مدى ارتباكي وعجزي في تلك اللحظة لأنه اكتفى بمطاردتي وحاول أن يغرس أي نصل من نصال أسلحته في قلبي وأنا أستحث الناس على كسر القفص المرسوم من حوله لحمايته وحبسهم في ذات الوقت، وكنت أجري صارخا وقد تحررت منه تماما وعدت تلميذا في ابتدائية الأربعينات أهتف والتلاميذ القدامى يرددون ورائي بحماس" الجلاء بالدماء.. الجلاء بالدماء" وعساكر سلطة الاحتلال تطاردنا ونتمكن من الفرار إلى أحضان أمهاتنا حيث نسكن وننام وقد تواعدنا على ترديد نفس الهتاف في الصباح التالي.

قلت لنفسي إنه كابوس بديع من تأليف وإخراج عقله الصاحي وخياله الخصب المرتاح الذي يعرف كيف يفتعل النهايات السعيدة تماما مثل أفلام الأربعينيات التي لا بد أنه رآها وتأثر بها.

**ش. أ. ب:**

ليس من العيب أن يحاول هو استدراجي إلى منطقة الحلم الوردي، لكن العيب أن يتجاهل الواقع الصعب الذي أعيشه ويطالبني بتغيير الجو وهو العارف أنني أحسب حسابا لكل خطوة أخطوها لكي أوازن أموري بين مطالب العيال والزوج ومصاريف علاج الأم الباهظة معتمدا على دخل ثابت وأسعار تتحرك.

**الباحث:**

بشرته بإمكانية أن تكمل شهرا قمريا دون دموع إن ابتعد عنها فترة وكف عن القلق بشأنها والحديث عن شللها الوقتي وعماها المحتمل، وقلت له إنه برغم كل شيء يملك الحلم المتجدد في شفائها يوما، وأنه وإن بدا محزونا إلا أنه يداري عني وربما عن نفسه وعنها تلك الحقيقة التي لا تقبل الجدل في أنه حتى في لحظة البكاء التي يفقد فيها أمله في شفائها، في نفس اللحظة التالية لجريان تلك الدموع يبدأ في الحساب من جديد ويولد لديه أمل جديد قابل للتحقق كجنين شرعي رغم كل المواجع التي يدعيها، لحظتها نظر إلي في دهشة وسألني باستنكار كيف توصلت إلى هذه الحقيقة وأنا مجرد باحث في علم النفس الاجتماعي؟.. فضحكت منشرحا وراضيا عن نفسي ثم ما لبث هو أن انفلتت منه ضحكة خالصة في صميم قلبه الفرحان.

إبداع/ أكتوبر 1989

## تمثال جديد لكاتب قديم

بدا لي أنه أغفى فانسلت من تحت الغطاء الخشن الـذي يسـتخدمه ويجبرنـي علـى استخدامه، أجلستني على المقعد الجاف وأمسكت قلمه، استحضرت كلماته وشرعت أخط على الورق حكايتي معه، عفوا لأنني لم أتعرف إليكم إلى الحد الذي يسمح لي بالكتابة لكـم، لكنـه يفعلها ويجرؤ فكيف لا أحاول. اسمي سنب زوسركا ومهنتي كاتب، لي تمثـال مـن حجـر البازلت الأسود وأنا جالس القرفصاء وعلى حجري لوح يسند قرطاسا من ورق البردي، وفي يميني قلم بوص أرسم به اللغة المقدسة، ولي رسوم شائعة لا يبين فيها اسمي المنقوش بخـط غويط في قاعدة التمثال، رسومي في الزمان القديم ثابتة الألوان لا تمحي، هي مجد للفراعين الستة وزهو للأسلاف، أخطو مدفوعا بالأيام على عتبات الخمسين شأنه، وإن كنـت أراه الآن أمامي في رقاده القلق الذي يشبه الصحو وصحوه الذي يتعادل مع الرقاد، عودني أن أتبـادل مع الأزمنة ضجرا، تضجر مني وأضجر منها، أشعر بعداوات وصداقات تتـداخل، وأطـالع وجوه الناس بغربة، غضبانا أو فرحانا أو مندهشا أرقب بعيون الراقد سطح النهر الساكن فـي زمن لم أختاره وإن عايشته، فأنا أسكنه الآن، وسليلي حامل وجهي ومبدل قلمـي وأوراقـي والطامح أن يرثني ويأخذ رتبتي ذلك اللابس سروالا من نسيج مخطط والصدر عار، يغط في النوم ويتنهد بحرقة فيزيد عليه سخطي، أنا أقدم كاتب في تاريخ الأرض المسكونة أتردى إلى حد التشكي من ذلك المصير التعس الذي أعادني فيه، ومن خلال عينيه أرى هـاتين العينـين الخابيتين اللتين تختبئان وراء زجاج سميك مؤطر بمعدن فضي كنا نستخدمه في تحلية صدور النسوة وزنودهن، يجرجرني معه في زحام مدينة غريبة ملوثة الهواء تتطاير فـي طرقاتهـا وحوش لا حصر لها من حديد وصاج ملون تحملها دوائر من عجين أسود مطـاطي القـوام، معذبي ومقلقي في هدأة الليل القادر على القيام والجلوس ورسم حروف تشبه الثعابين والمباخر والشواديف والسلال، يوقد في الليل شموسا وأقمارا صغيرة ويقرأ أو يكتب.

سأحاول أن أخرج من جلدي الآن وأدخل جلده فقد تقلب وجلس وسأدخل أيضـا فـي ذاكرته وأطرد ذاكرتي الأولى ألبس ثوب عصره وأجاهد ألا أندهش لآلاف الأشياء المدهشـة التي تجري من حولي، سوء الحظ رماني داخل هذا الجرذ الأحمق، لو كان يحق لمـن عـاد ليحيا عمره الثاني بعد طول الرقاد والسكون أن يختار البدن الأنسب لاخترت سواه حتى لو لم يعمل في نفس المهنة أو يحمل نفس التقاطيع، هوان لمهنتي أن تدخل هذا البنيان، وهوان أكثر

أن أعود فيه أنا سنب زوسركا، سيادته إن كان لدود الأرض سيادة لا يليق بي على أي نحـــو، حتى ولو حمل اسم أحموزي طارد الهكسوس محرفا فتلك خدعة تناسب البدايات وسرعان ما يتكشف أمرها، وحتى أكون منصفا أعود وأقرر أنه في صدر شبابه أغراني بكتابـــات لائقـــة بشرت به كاتبا مرموقا في زمانه، ولولا أنه انحدر بقوة لأعطيته كل أسراري ومكنتـــه مـــن تلافيف ذاكرتي وتلوت على مسامعه أناشيدي وأورادي وألبسته خاتم الوظيفة المقدسة، لكنـــه لأسباب لم أتبينها خذلني وخذل نفسه وروح الفرعون الإله الذي يتسمى باسمه محرفـــا، قلبـــه خفيف ربما، أتخيله وقد عاش الزمان الأول وأنكر عليه احتمال القيام بمثـــل دور الفرعـــون الإله، مثله كان من الممكن أن يخشى الناس أماكن ظلالهم التي غادروهـــا، ولســـت أصـــدق هواجسه التي تنتابه في أنصاف الليالي وهو يقوم مفزوعا ومدعيا أنهم خلفه وأمامـــه وحولـــه يدبرون له المكائد، من يملك أن ينزع الأسماء عن الأبدان التي لا تستحقها في زمانكم يا سادة، من يثبت القلوب الرعديدة والعقول المرتابة والوجوه التي تتلفت حواليها فزعا من كل غريـــب زائر مخافة أن يكون خصما يتلصص؟ هو صرصور يمط قرون استشعاره في وجل ويسارع بالاختباء خلف أي ساتر أو داخل أي تجويف معتم، يجرجرني معه بالإكراه لأتـــوارى وأنـــا الساكن أرض وطني، لا أدري إن كان هو الذي سكنني أو أنا سكنته، لكنني أعرف إلـــى أي هوة سحيقة سقطت بوجودي معه، كنت في الزمان الأول سيدا تحوطه احترامات الكل، وكنت معه هو نفسه في البدايات أنعم بالجسارة التي تطل من بين سطوره، كان يكتب ما يعـــن لـــه، يقرأ كتب الحكماء القدامى ويبحث عن برديات الأسلاف يترجمها ويحفظ نصوصـــا ســـطرها الكتاب السحرة، كان يساويني في صدر شبابي إلى حد أنني كنت محسودا لاكتمـــال التوافـــق بيني وبينه، لكنها كانت بدايات سرعان ما تبددت وزالت ثم استحالت.

أتذكر أنني كنت أحوم في أفق الوادي روحا قلقا يبحث عن بدن لائق، كنت أطل على النهر حين رآني، كان قويا وعارفا قدري في ذات الوقت، لاحظ أصحابه وجه الشـــبه بيننـــا، عملوها نكتة وأجلسوه يومها في بيت أحدهم عاري الصدر جلسة القرفصاء وضحكوا.. فرحت به وبهم وتذكرت شبابي، تذكرت على وجه الدقة أستاذي ومعلمي وسيدي يوم أســـلمني قلـــم البوص وقرطاس البردي نصف المكتوب وأجلسني القرفصاء، قال أكتب فكتبت في حضـــرة الفرعون الإله، عاد وقال اكتب فكتبت، أخذ البردية وأراها للفرعون ومجلسه العادل، قال كبير الكهنة: هذه السطور نسيج من نفس النيل، وقام الفرعون وغطى رأسي بالمنديل الذي تتقـــاطع خطوطه عند لقاء الأذنين بالصدغين، لا فرحة في الدنيا تتساوى مع تنصيب كاتـــب، جلـــس الفرعون الإله واقترب مني كبير الكهنة، رشني بالماء المقدس وقال بصـــوت جهـــوري رج جنبات القصر:

ـــ"هو أنت الآن يا سنب زوسركا كاتب مسئول عن رسومك، لا تكذب، لا تكسر سن بوصتك جبنا، ولا تكف عن غمسها في حبر الكتابة ابتعادا عن المخاطر، واكتب، ولا ترهب أعداء الأرض السوداء وإن جاءوا في ثياب الأصدقاء، واكتب، لا تتعلل بعيالك أو جوع امرأتك واكتب، لا تتلون مثل الحرباء أو تتشقلب مثل القرد أو تغمض عينيك عن الأخطاء، واكتب، وإذا أخطأ كبير الكهنة أو نسى الفرعون الإله عدله الأبدي فاكتب، لا تتردد في كشف الأخطاء، فللفرعون عمرك وأنت فداه، لكن الروح لرب الأرباب" .

سوء الحظ رماني في بدن لا يعرف قيمة ما ورثه، تقف حدود المعرفة لديه في أجداد من فلاحين وصيادين وبنائين وصناع سلال وحصير وحبال شواديف، وأب شغلته نجار براويز صور وأسرة ودواليب ونمليات، وأحيانا حين يضيق الحال يصنع للنسوان طبالي ومطارح وكراسي حمامات، يكسب قوت اليوم ولا يدخر سوى المليم أو السحتوت لأيام العطلات وبوار الصنعة، ولأنه يوم مات أورثه فقرا وديونا يصعب سدادها أوشك أن ينكسر في سعيه المتواصل لشراء حبات الحنطة يصنع بها خبزه، ولحبات الحنطة أو قل ندرتها في الأرض السوداء وجع، وجعين، الأول تلك الندرة والثاني إصرار ابن النجار على الشكوى، والشكوى عجز، في نفسي شيء شامخ يتأبى أن يتباكى على الصغائر، كبار النفوس كبار الناس، صغار النفوس صغار الناس فكيف يجيء الزمان الذي تغوص نصال العوز في قلوب النفوس الكبيرة، ومن فعلها أحدث عنه النهر والصحراء والبحر البراح، ومتى تفرغ النفوس الكبيرة لتصنع للناس أحلامها؟

رجل في الخمسين كان يسير قريبا مني ويدعو ربه بصوت مسموع:

ـــ يا رب استرها معي، أنا لا أطلب أكثر من جرعة ماء من نهر النيل، ونسمة هواء قليل الفساد، وحيز مسقوف يداري معي الزوج والأولاد، وكسرة خبز ترد الجوع.

عندما رآني دندن وتظاهر بالغناء، تأملته فوجدته شبيها بكاتب المظالم عند باب المحكمة، كدت أحدثه عن أن الشكوى وسيلة العاجز، لكنه أسرع خطاه ودخل الزحام وما عدت قادرا على تمييزه أو اللحاق به، لو كان مثله يعيش في زماننا لحدثت الفرعون عنه وأرسل من يحضره من أمام المحكمة يمنحه أرضا ودارا وأبقارا لأنه وإن كان مجهولا لديه فهو كاتب يسجل على أوراق البردي أمجاد الزمان الذي يعيشه ومخازيه.

عجيبة هي الحياة في مصركم يا سادة، هذا الوغد ساكني أو سكني نطق الحكمة أو نقل الحكمة،"يعطي سره لأضعف خلقه" هكذا سمعتها وتأكدت من بعض صدقها بعد تفكير عويص، وإذا كنا نحن قد عشنا زهو زماننا لأننا كتبنا ما كان يميله علينا الفرعون الإله أو كبير الكهنة أو حكيم الحكماء، فها هو ذا رجل في الخمسين مصاب بالوساوس والهواجس، ومسلطة عليه أفكار لا تسر، خياله مريض بأحلام يقظة دموية الطابع، يتوقع ـــ لا أدري لماذا

ـ الشر من الجهات الأربع ـ يجلس على مقعد جاف ويسند كوعيه على تختة قديمة من خشب كالح ثم يمسك قلمه ويكتب أشياء، أراقبه من بعد فألاحظ أنه يشغل خلايا مخه ويتصور أشياء لا حصلت ولا كانت لكنها تبدو كما لو أنها كانت، بل إنه يرسم بالكلمات شخوصا لم يصادفها أو يسمع بها وأقول لنفسي لعله السحر لكنني أكتشف أن السحر وسيلة السحرة وهم قادرون على تحويل الطمي ذهبا وتحويل الأوزة بقرة، وعليه فلا سحر هناك، ولقد حاولت منذ البداية أن أفعل فعله فكابدت شقاء ما بعده شقاء، لكنني لم أستسلم وداومت على المحاولة إثر المحاولة حتى تمكنت من مسايرته والسرحان معه، هو نفسه لم يدع لي فرصة كي أفكر في التراجع، وذات مرة شعرت بزهو يفوق كل زهو صادفته، انشرح صدري وأحببت الحياة أكثر وأكثر، وجعلت أدرب ذاكرتي لتستعيد تواريخ ونوادر وأناسا من أزمنة فاتت، وجرؤت وقلت لنفسي هاأنتذا يا سنب زوسركا كاتب جديد، ورقصت مرة لأنني كتبت للأطفال حكاية أعجبتهم، رقصت بنشوة غامضة لم أجربها من قبل، كان يناولني الكتب كتابا في أعقاب كتاب ويوصيني أن أقرأ، أن أفهم، ألبسني إطارا يحوط دائرتين من زجاج سميك، وسماني مثقفا وهو لفظ من تلك الألفاظ الغامضة التي لم أفهمها جيدا في تلك اللغة المراوغة، شربت أطنانا من الشاي الساخن ودخنت ملايين اللفافات، ورأيت كتاباته إلى جانب صورتي على صفحات المجلات وأوراق الصحف، حُزْنَا معًا إعجاب الخلق وما حصلنا على أكثر من وظائف بملاليم، جوعني وجوع أولاده وزوجه، لو أشبعنا يوما جوعنا يومين، أطفاله الصغار يتامى في وجوده فكيف يكون شأنهم بعد موته؟ مجنون بشراء الكتب وأجبن الجبناء في شراء اللحم، ذات مساء سمعت صراخ زوجته بسبب لفافة كتب شالها بفرح ناسيا خبز الأولاد، بيني وبينكم لها حق، فاض الكيل يا سادة ولم يعد للصبر معنى، كنت مفزوعا من الشر الطالع من عينيها وفرحانا لأنها جرؤت مرة وأفحمته.

في البلد مجاميع من الناس تتحزب وتتبادل الخدمات، لكنه خارج عن كل الدوائر، وحيد وحدة قاتلة، لا أنكر أن له أصحابا أكثر من أصحابي، لكنهم أفراد، كل منهم جزيرة معزولة وسط بحر صاخب يعلو فيه صوت الهدير وترتفع الأمواج، عصا مفردة سهل كسرها، يكتب للمجهول ولا يأخذ ثمنا، يتحدث عن عدل لم يوجد أبدا فوق الأرض، وأنا العارف أسرار التاريخ المكتوب وغير المكتوب أؤكد أن لحب الأرض حدودا، وإن ضاقت بك أرضك فارحل عنها تتحقق، غيره يا سادة سعى وتنقل، حاول لم ييأس، عاد بثمن الحنطة وأساور للنسوة، صاحبنا أرضاه كلاما سطره عن طين الأرض.. ضبعني، أوجعني، قلت أوبخه يوم أصيب الطفل بجرح لم يملك ساعتها أجر طبيب يوقف نزف الدم"أعشق طين الأرض وزودها بدماء الطفل النازف يا أجهل جهلاء الأرض" أطرق بالعجز عن الرد.

خمسون عاما يا سادة، وأنا الراجع من أزمنة الجرأة، أصـــرخ فـــيكم وأنـــبهكم إلـــى ضرورة عمل تمثال جديد من طين الصلصال لكاتب مسخرة ذاب في حروف لغـــة عصـــية مراوغة، وجبن منذ البداية عن اقتحام الحياة، مخضوض الملامح دوما يعاني من فقـــر الـــدم، يدعي أن اسمه أحموزي ويكذب، يشمخ بأنفه متوهما أن لأمثاله في هذا الزمان قيمة، اعملوها وجهزوا مادة التمثال، مجرد بركة صغيرة في طين الصلصال، وأؤكـــد لكـــم أنكـــم ســـوف تضحكون كثيرا كثيرا حتى تدمع عيونكم من كثرة الضحك على شكل التمثال الجديـــد لكاتـــب قديم نادرا ما يتكرر.

إبداع ــ فبراير 1990

## القط الرمادي

كنا قد اعتدنا مجيئه وقت العشاء تماما، حتى في تلك الأمسيات التي نتناول فيها وجبتنا قبل موعدها أو بعده كان يأتي ويموء، كأنه كان يراقبنا من خلف جدار ويتسمع كلامنا، يدعو نفسه بنفسه فتبسمل أمي وتضع أمامه نصيبا يكفيه وهي تنسج من حوله الأساطير التي تبعث في قلوبنا المخاوف من مجرد التفكير في طرده أو الامتناع عن تقديم العشاء إليه وكأنه واحد منا. كانت تؤكد لنا أنه ملاك يتخفى بدليل أنه يصل إلينا في موعده حتى وإن كانت الأبواب مغلقة، كان ينفذ لا ندري كيف، يموء فنبسمل ونشعر بقلق غامض فتطمئننا وهي تضع أمامه نصيبه المحجوز قائلة: إنه ما دمنا لم نغضبه أو نضربه أو نفكر في تجويعه فإنه لن يفكر في إيذائنا، كانت تصرفات القط تبدو لي غريبة وغامضة إلى حد جعلني أتخوف من احتمالات أن يكون مكلفا باكتشاف أخطائي الصغيرة ومحاسبتي أمامهم عنها، كنت أنكمش على نفسي وأنا أنظر إلى عينيه البراقتين وأوشك أن أتوسل إليه ليسامحني فيهز ذيله ثم يمسح بوزه في راحتيه وكأنه إنسان يعد بالكتمان هذه المرة.

كانت مجرد علاقة بين قط رمادي في مقدمة رأسه بضع شعيرات سوداء وصبي يحلم بالنجاح في دراسته، ولأنه بحسب تأكيدات أمي طالع من تحت الأرض فقد كنت أتودد إليه أيام الامتحانات، أناوله شيئا من نصيبي سرا أو علنا لأحصل على رضاه الكامل فيأكله وهو يهز ذيله ثم ينظر ناحيتي قبل أن يختفي وقد اطمأن قلبي لأنني عاملته معاملة حسنة تليق، لكنه حدث ذات مساء أن جاء القط الرمادي على عادته وعلى طبلية العشاء سمك مقلي، وقد حرصت أمي على تجميع المخلفات التي خلصناها لكن القط تشممها ولم يبد حماسا أو استعدادا لأكلها كما كنا ننتظر، ظل ساكنا مكانه يموء طلبا لحقه في العشاء، واندهشت أمي لرفضه بقايا السمك، ربما ظنت هي أن القط غاضب لسبب نجهله، مدت راحتها وحاولت أن تربت على ظهره فماء محذرا ثم انقض على كفها بمخالبه، عضها فأصابها بفزع، وعندما تحمست لضربه بالعصا حذرتني وتحاملت على نفسها، كان القط مكانه ما يزال ونحن ننظر إليها وهي تربط كفها مكان العضة وخربشات المخالب، بدا لنا أنها سامحته وربما فهم القط ذلك أيضا لأنه تجرأ وأخذ قطعة من سمك الأم التي كانت تتأمل برعب مدهوش وتدعونا لتركه يفعل ما

يريد، أكل القط لحم السمك الخالص من كل البقايا حتى شبع ونظر إليها ثم هز ذيله قبل أن يختفي، حدثتنا هي عن أولئك الذين تعرضوا لأمثال ذلك القط بالإيذاء فنالهم ضرر، منهم من شلت يده ومنهم من مات ومنهم من خطفوه تحت الأرض وعذبوه بالتجويع أحيانا وأحيانا بضرب الكرابيج، ومنهم من سخط قطا ضالا يسرح في الشوارع ولا يجد من يعطف عليه أو يقدم إليه طعاما أو شرابا حتى يموت بالجوع وهو يموء مواء يقترب من كلام البشر، من ليلتها تزايد خوفنا منه وصرنا نتحاشى النظر في عينيه اللامعتين وقد احمرت حدقاتهما فبدا لنا جنيا من سابع أرض على استعداد لافتراس من يعارضه، وأصبحت زيارات القط الرمادي تعني خسارة مؤكدة، قطعة لحم في طبق أو نصيبا من طائر مذبوح في ليلة عيد، يأخذه ونحن في صمتنا الخائف لا نعترض، أصبح بارعا في أن يفرض لنفسه حقوقا جديدة ويزيد نزواته ونحن نتأمل دون استنكار، مجرد استنكار بالكلام أو احتجاج بالإشارة، وبدا لنا أن القط أدرك أننا على استعداد لتلبية مطالبه فاستمرأ الأخذ بجرأة أكثر غير هياب أو محاذر، واستسلمنا للأمر ودعونا مع أمي أن تجيء إليه بلوة من غيرنا، صدقنا ما كانت تؤكده في كل ليلة أنه جن متمرد يقدر على النفاذ من كل الحواجز، كان يطلع لنا وقت العشاء لا تدري كيف طلع ولا بد أنه كان يطلع من تحت الأرض فعلا ويمارس الالتهام قبل أن يختفي، كانت أمي تقرأ آية الكرسي وتستعوض الله في كل خسارة تصيبنا ما دمنا بخير.

لكنه عندما تزايدت شراسة القط وأخذ لأول مرة فرخ حمام وليد لم تحتمل، كان ذلك في ليلة شم النسيم وكنا نلون البيض ونقشر الفسيخ ونضع على البصل خلا وزيتا لوجبة غذاء الغد، عندما دخل القط وتلفت حوله باحثا عن وجبة عشاء دسم فلم يجد ما يرضيه فوق الطبلية، تحرك من مكانه ونحن نتابعه وقد حسبنا أنه أعفانا من مسئوليته تلك الليلة، لكننا سمعنا هديل حمامة مفزوعة، قامت أمي ورأتها جريحة الجناح تتقافز والقط واقف وبين مخالبه فرخ الحمام الوليد ينهش لحمه يزوم محذرا كل من ينظرون من مجرد التفكير في الاقتراب، أذكر أن أمي لطمت خديها مرتين ولم تقترب، واذكر أنه جاء مرة أخرى وفعل نفسي الشيء ولم تلطم أمي غير مرة واحدة، وتحول القط بعد أفراخ الحمام إلى الأرانب الصغيرة، يبطش بها ويختفي، تحول القط إلى كابوس مفزع، يظهر فتختفي الدواجن ويزداد خوفنا منه وهو يزوم ويموء في توحش ولا يتخلف عن المجيء أبدا.

قال العم صلاح وهو في زيارتنا تعليقا على حكايات أمي عن ذلك القط المخيف:

ــ لا يفل الحديد إلا الحديد.

فاستفسرت أمي عن المعنى الذي يقصده فاستمر بنفس النغمة قائلا:

ــ القط يحب خناقه، أعني من يقدر على تخويفه وإبعاده عن المكان ما دام قد استباحه.

كانت أمي ترتجف وهو يعرض علينا فكرته بتربية كلب في دارنا، قالت هي أن في الكلاب نجاسة وأنها تنقض الوضوء فلم يتراجع عن رأيه أبدا، أقنعها بأن القط مصاب بالسعار وأنه لو قضى على كل دواجن الدار فلن يمنعه شيء من نهش لحمنا نهشا في صحونا أو رقادنا، وساعتها ينقل إلينا سعاره وربما نموت، وربما بسبب خوفها علينا وافقت على مضض أن يتولى هو بنفسه إحضار كلب إلى دارنا ليكون الذنب في رقبته هو لأنها كانت ما زالت تثق أن القط ملاك أو جني طالع من تحت الأرض وربما يسخطها أو يخطفها إن فكرت في إيذائه بأي الطرق.

كان الكلب في وسط الدار ينبح ووجبة العشاء فوق الطبلية ساخنة وشيء من الاطمئنان يسري في قلوبنا لأن القط لم يحضر، وقبل أن نبدأ رأيناه قبالتنا وقد اسودت رأسه أكثر وبرقت عيناه في شراسة وعداء، وصرخنا في فزع ونحن نقوم ونهرب من مواجهته دون أن نتأكد إن كان هو نفس القط أو أنه غيره وكان الكلب ينبح نباحا متواصلا والقط يموء متوعدا ونحن لا نراه.

جريدة الحياة/ نوفمبر 1989

## ست الدار

**في زياراتها المتكررة إلى قبر الرجل الكبير كانت تبدو لكل من يراها مشرقة الوجه أكثر منها حزينة، خطواتها عفية رغم السنوات التي عاشتها وزادت بحسابات الكبار من أهل الكفر عن التسعين، كانت تتقدم من يشاركها المشوار في سكة المدافن بخطوة أو خطوتين، تقطع المشوار من دار الناعسة في شرق البلد إلى بداية الطريق في غربها مشيا على القدمين بخفة وعزم، خطواتها متعجلة يشوبها إصرار وقدرة وهم في أعقابها يلهثون أو يزمجرون احتجاجا على إصرارها للذهاب مشيا في كل مرة:**

ــ يعني هو من قلة الحمير في البلد؟

ــ الواحد انقطع نفسه وهي بتدب في الأرض زي الفرعون.

ــ أبويا الله يرحمه ما شافش الراجل الكبير خالص.

بس كان يصحى لها وهي بتطلع الجبانة تترحم عليه.

ــ أبوك أهو مات وشبع موت، ويمكن لو ما كنتش هي بتيجي في المواسم ما كنتش أنت تطلع تزوره وتفتكره.

ــ يعني أنت اللي مقطع السكة ع اللي لك؟

ــ أنت ح تعايرني؟ قرب خلينا نحصلها وبلاش وجع قلب.

على هذا النحو كانوا يتحاورون في كل مرة، ربما كان الحوار وسيلتهم الوحيدة التي تعينهم على تكملة المشوار الطويل، وكان يتأكد للواحد منهم أكثر من مرة أنها تتسمع مثل هذه الحكايات والشكايات ولا تعيرها انتباها، ربما كانت تستخف أو تتشاغل عن سماعها باهتمام كاف لأنها مجرد ثرثرات لازمة لإكمال المشوار، كان الوصول إلى قبر الرجل في كل مرة أهم عندها من مجرد التفكير في مجاراتهم أو الدخول معهم في ثرثرات فارغة، كانت تمضي في طريقها صامتة وكأنها في نفس الوقت تشدهم بهذا الصمت خلفها طوال الطريق الصعب، وكانوا جميعا يشعرون أن عندهم بعض الحق، ففي كل زيارة كانوا يعرضون عليها فكرة الركوب وترفض، كان الواحد منهم يجهز حمارته ويأتي بها أمام دار الناعسة رغم وعيه المسبق من احتمال عودتها إلى داره دون استخدام، أكثر من ركوبة يربطها أصحابها في حديد النوافذ أو جذوع شجر الكافور أو أي "وتد" مدقوق جنب جدار، لكنها كانت ترفض وتؤكد لهم

أنها ما زالت تستطيع الذهاب مشيا فتحرمهم في نفس الوقت من حق الركوب، ومع ذلك يجاهد كل واحد منهم أن يؤكد لها أنه جهز ركوبته من أجلها، كانت تصدق رغم إدراكها وإدراكهم استحالة ركوبها كل هذه الحمير المربوطة في انتظارها، كان البعض منهم ينسلت في غفلة، تسأل هي عنه فلا تجده، كانوا في كل الحالات يؤكدون بعد الزيارة أنهم أبرأوا ذممهم من ذنبها، وعلى امتداد تلك السنوات التي زارت في كل مواسمها قبره ــ والتي زادت بحسابات الكبار من رجال الكفر وحريمه عن الثلاثين عاما دون أن تخلف موعدا ــ كانت تأتي قبل ميعاد "الطلوع" مهما كانت قسوة الجو حرا لا يحتمل أو بردا لافحا أو مطرا يحول السكة الزراعية ودروب الكفر وطريق المدافن إلى وحل خالص دون "مسارب" أو "مدقات" أحيانا كان أحد أبنائها الأساتذة يوصلها بنفسه إلى دار الناعسة أو يكلف أحد أحفادها بتوصيلها وأحيانا كانت تأتي وحيدة، تدخل دار الناعسة وتجلس، ربما تطلب شايا أو فطورا، وسرعان ما يحوطها البعض في جنبات الدار بغبطة فتبدو للجمع الملموم كما لو كانت تريد أن تقدم لها ولهم كل خزين الدار أو أكثر مما تطوله وتملكه، تدعوهم ويعتذر البعض، لكنه في كل الحالات يكون هناك زحام حول طبلية الناعسة التي ترمح هنا وهناك تحمل صحنا أو مسندا أو تفرش حصيرا آخر لتوسع الحيز المفروش في المندرة، وبينما الأفواه تمضغ تطل الناعسة وتبدي استعدادها لتنفيذ أية إشارة، تكون مشاغبات وذكريات ومناوشات بين الجميع وست الدار تنظر إلى الكل بسماحة الوجه الطري الذي غزته التجاعيد بكثرة فأكسبته هيبة الجدات، تصب الناعسة أكواب الشاي من البراد الكبير بعد أن ترفع الطبلية، يشربون ويستعيد كبار السن منهم بعض الحكايات القديمة فتتذكر هي وتهز رأسها قبل أن تشارك بعقل واع وعينين صاحيتين، ربما تزيد للحكاية أطرافا، ربما تصححها أو تعيد روايتها فيستمعون وقد ارتسمت على الوجوه غبطة افتقدوها في أيامهم الأخيرة، ربما لأنها تكون دائما بارعة في استدعاء الزمن القديم الذي عاشته مع الآباء والأجداد، وربما لأن وجودها نفسه كان يعني دعوتهم لتأدية واجب تناساه البعض منهم نحو من سبقوهم في زحمة الأيام وخلف في الصدور نوعا من الأسى، ما كان يحيرهم من أمرها هو إصرارها على الذهاب مشيا على الأقدام، وكثيرا ما كان البعض من كبار السن ينسلت أو يتعلل بشتى الحجج للانفلات من"طخ" المشوار مشيا حيث لا يليق أن يركب الواحد منهم وست الدار أمامهم تسعى على قدمين، كان البعض منهم يلتقي مصادفة مع أحد أبنائها أو أحفادها في البندر ويحدثه مبديا غضبته المسامحة سلفا بسبب رفضها الركوبة:

ــ جهزتلها الركوبة بنفسي يا أستاذ، حطيت عليها البردعة الجديدة، الشمس كانت قايدة نار والمشوار طويل، الترب محدوفة بعيد عن البلد زي ما أنت عارف، ودي عضمة كبيرة يا أستاذ، يرضيك ترجعني بالحمارة كدهه؟

ـــ ح نعمل معاها إيه بس؟ ع العموم معلش، أنت تزعل نهار ما تركب ركوبة حد غيرك، إنما كدة يبقى الغلط مردود.

ما قلناش فيه غلط ولا حاجة، بس إحنا بنخاف عليها برضه، طيب تصدق بإيه إن خالي المرسي رجع من نص السكة، كان مخزي وهو راجع، ونهار الشتاء اللي كان مغرق الدنيا أبويا إبراهيم وأبو حسين ما طلعوش الترب خالص.. ابقى هو معقول يعني حد منهم ح يروح راكب والست الكبيرة ماشية؟ النفر مش عارف يقول إيه؟

ـــ معلش.. وكثر ألف خيرك.

على هذا النحو كانت مثل هذه اللقاءات تنتهي، مجرد شكايات هادئة وتهدئة خواطر عاجزة عن الوعد بالوصول إلى حل، كان الأبناء والأحفاد يعرفون ويسمعون، وأحيانا كانوا يتحاورون ويكتشفون أن ما تفعله ست الدار سوف يبقى ما بقيت هي قادرة على الحركة وبنفس الطريقة، كانت تعلن لهم قبل مواسم الزيارات التي تجهز نفسها للقيام بها، تبعث للناعسة تكاليف الرحمة قبلها بأيام، تحرص على تجهيز ثوب جديد أو مداس جديد، كأنها طفل يرتب ثياب العيد ويتعجل طلوع النهار، كانوا يتبادلون الابتسامات والتعقيبات المرحة، وأحيانا يتآمرون عليها تلك المؤامرات الصغيرة عندما تجد أمامها في وقت واحد أكثر من ثوب جديد وقميص جديد وغطاء رأس جديد.. مجموعة من اللفافات يقدمونا وهم يتبادلون النظرات فتقضها وتتحير في أمرها قبل أن ترتبهم أكواما وتحدث نفسها:

ـــ دول لطلعة رجب، ودول لنص شعبان، والشبشب ده مع الطرحة دي لوقفة العيد.

ـــ نورتي بيتك يا خاله.

كانت الناعسة تقولها في كل لقاء، تتبادل معها قبلات الشوق وتحمل عنها ما قد يكون بين يديها محمولا، تفرد الحصير وتضع مسند الكنبة خلف ظهرها، تعمل على راحتها وتتأكد من ذلك، يصبح دخول ست الدار عندها عيدا أو ما يشبه العيد، الوحيدة في الكفر التي كانت تناديها "يا خالة"حتى من هم بالنسبة لها في مراكز أبناء وبنات الأخوات كانوا ينادونها مثل الكل بأسماء أخرى ( ست الستات ـــ ست الكل ـــ أم الأساتذة ـــ أم الهوانم ـــ الست الكبيرة ـــ أو ست الدار ) كانت علاقتها بالناعسة تختلف عن بقية أهل الكفر أقارب وأغراب، كانت الناعسة من نفس العائلة لكنها لم تكن ابنة أخ أو أخت، لم تكن حتى ابنة عم العم أو خال الخال، لكنها من نفس الصنف، من أصلاب نفس الرجال جاءت وإن لم تفكر ست الدار يوما أن تحدد درجة قرابتها معها، وجدتها ذات صباح أمام باب دارها، صبية جسورة النظرات إنما بأدب، لحظتها فكرت بينما تتأمل ملامح الناعسة ( لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت، بطولها وسط فروع العائلة متشابكة الأطراف ) طلبت منها ست الدار أن تدخل فدخلت، طلبت منها البقاء فاستجابت، لم يحدث بينهما اتفاق على الاستمرار لكنها استمرت وعاشت في الدار

لسنوات لم تحسبها، كانت تعامل الناعسة في بعض الأحيان وكأنها واحدة من بناتها الكبار التي بكرت بهن قبل خلفة الصبيان، أحيانا كانت تقربها منها كما لو كانت أختها رغم فارق السن بينهما، تبثها شكايات العمر الصغيرة والكبيرة باطمئنان من وجدت في عقل الناعسة وقلبها بئر الكتمان الغويط، كانت الناعسة دائما حولها ومعها ولها، تغسل وتطبخ وتطحن وتعجن وتخبز دون تكليف، تحلب وتذبح وتبيع فائض المعاش دون أن تستشير أحدا ، في بعض الأحيان كانت تأمر وتنهي في طول الدار وعرضها وفي وجود ست الدار، حتى الرجل الكبير كان يسألها هي عن المطلوب قبل أن يغادر الدار في طريقه للعمل في البندر، وعندما يعود كان يناديها ويناولها المطلوب، قطعية لحم أو قمع سكر أو مقطع قماش لازم لكسوة العيال، كان الرجل قد أدرك أن الناعسة حصلت على توكيل بالصمت من ست الدار لتتولى هي عمل كل شيء، كانت ست الدار مشغولة بخلفة الصبيان وتربيتهم في تلك السنوات، وكانت تهمس للناعسة في السر والعلن:

ــ أصل أنتي يا ناعسة وش خير.

ــ يجبر بخاطرك يا خاله.

تقولها وقد أطرقت في خجل أو أسبلت عينيها العسليتين برموشهما الطويلة فبدت مثل واحدة من بنات ست الدار، أيامها كان الكل يقول إن الناعسة دخلت الدار وجلبت السعد لأهلها، كان الرجل الكبير ينعم بإحساسه بفرحة أنه صار أبا لخلفة من الصبيان بعد زمان طال وطال، ربما كان في الخمسين من عمره عندما وضعت له ست الدار أول مولود ذكر، وربما كانت بعض بناته من الحريم القدامى قد صرن في ذلك الوقت جدات، كانت أحواله قد تغيرت وجعل ينفرد بنفسه في الأركان يفكر، وست الدار ترقب فرحته التي كانت تبدو لها في تلك الابتسامات الشاردة المذهولة، وعندما سألته ست الدار عن سر شروده وعزلته رد على نفسه بصوت هامس:

ــ العيال دي ح تكبر، ويلزمها علام، الخلق ما بترحمش، يبقى الحل إيه؟

ــ إيه في إيه؟

سألته فالتفت إليها وكأنما فوجئ بوجودها وسمح لها بأن تجلس أمامه وهي تحمل الولد الثالث على صدرها، مد يده ومسح على رأسه بحنو وسألها:

ــ يا ترى ح أعيش لحد ما يكبر ويعرف عدوه من حبيبه؟

ــ يديك طولة العمر.

ــ الولاد جايين بعد شوقة كبيرة يا ست الدار، وانتي لسة صغيرة ولا تعرفيش، أنا بقول نبني لنا دار في البندر ونعيش هناك، ما هو لازم ح يروحوا مدارس ونطلعهم دكاترة

ومهندسين، ح نربيهم أحسنها تربية، يبقى لازم نخفيهم عن عنين الخلق اللي مـــا عنـــدهاش، العين يا ست الدار فلق الحجر نصين، والحسد مذكور في القرآن.

يومها لم تملك أن تعلق على كلامه بشيء، كان قد انتفض واقفا وجعل يخـــبط قمـــاش جلبابه بيده اليمنى بينما اليسرى قد أمسكت طرفا حجرها ولفته ليظهر أمام عينيه وعينيها آثار جلسته على حجر الطاحونة الكبير من رماد وقش يتساقط من أثر خبطاته وخبطاتها، زحفـــت قدماه في اتجاه باب الخروج وهي تتابعه حتى سكت المكان، تنهدت وقامت، دارت حول نفسها بالولد، هكذا اعتادت منه واعتاد منها، أن يقول وتسمع وربما لا ترد ويكون مجـــرد ســـماعها اشتراك في الفكرة وموافقة عليها تستوجب الاستعداد للتنفيذ، وربما لم يطل الوقت لأنه جاءها بعد أيام ليخبرها بأن الدار الجديدة التي بناها بجوار مدرسة البندر قد اكتملت تماما وأنه عليها أن تجهز نفسها والأولاد للانتقال للعيش فيها:

ـــ ح ارتاح م المشوار كل يوم والثاني، وتبقى الناعسة تقضيكي من سوق الخميس.

ـــ الدار اللي ف الكفر دي مش ح تتباع للشيخ فرج، والبنات الكبار ما يخدوش فيهـــا كمان، لو انقسمت ما بينهم مش ح تبقى داري اللي أبويا كان بيرمح فيها بالحصان وأنا راكب قصاده، لكن الدار دي كمان لازم تفضل عمرانة، ما يسكنهاش الواغش، يبقى الحل إيه؟

ـــ إيه ف إيه؟

نظر إليها وأكمل على طريقته:

ـــ هي الناعسة دي مش مصيرها تتجوز؟

ـــ مصيرها..

ـــ خلاص.. نكتب لها الدار، وح نشرط عليها شرط، وحتى من غير شرط، ما هـــو بعد ربنا ما يتولاني ح تزوريني يا ست الدار، تبقى تطلعي عليا من هناك، وإوعاكي يهل عيد ولا أشوفكيش، وإياك ـــ موسم يعدي عليكي وتكسلي ما تروحيش.. أزعل خـــالص، صـــحيح مشوار الترب بعيد لكن ما فيش مهرب، النفر يندفن في تراب الكفر وسط عضم الجدود.

ـــ يديك طولة العمر.

بذلك ردت عليه يومها وقد وقف على عادته ينفض مقعدة جلبابه من أثر جلسته علـــى درجة السلم، وعندما خرج فكرت ثم كفت عن التفكير، وربما لا تذكر إن كان العمر قد امتـــد به قليلا أم كثيرا، كل ما تذكره أن الناعسة تزوجت في وجوده ودخلت في نفـــس الـــدار، وأن الولدين التوأمين كانا يخطوان خطواتهما الأولى يوم حل أجل الرجل الكبيـــر، وإنهـــا عملـــت بالوصية ولم تخلف موعدا، كانت تطلع لزيارته في كل المواسم، من داره التي سكنتها الناعسة كانت تخرج وإلى داره كانت تعود، والناعسة التي خلفت وزوجت خلفتها وصـــارت بحســـب نداء الصبية والبنات جدة هي الناعسة التي رأتها ذات صباح أمام باب الدار ودعتها للـــدخول

فلم تمانع هي نفس الناعسة، مفتوحة الصدر والقلب والمشاعر، تقابلها بنفس الحماس والحيوية، تحوطها بالحب وتهمس:

ــ نورتي بيتك يا خاله، اطلعي ارتاحي ف مقعدك يا ست الستات، وسط دارك زي ما هو نضيف يا خاله وخطوتك فيه بركة وخير.

تسبق خطوات الشيخ حسنين النعسان نحنحاته، يتهامسون بوصوله قبل أن يدخل الدار، تتساند هي على كتف صبي أو صبية وتلبس مداسها الذي تتطوع بتقريبه من قدميها أي يد، يدخل الشيخ حسنين بنفس الطريقة التي كان يدخل بها عمه الشيخ خضر النعسان، يبسمل ويحوقل قبل أن يلتفت إليها ويهمس:

ــ تعيشي وتفتكري يا ست الكل.

ــ اسبقني يا شيخ حسنين.

ــ حاضر.

يقولها وقد ازداد اقترابا منها وجهز نفسه لاستقبال راحتها المضمومة على النقدية تغمزه بها غمزا يتوقعه ويحسن التلقي، تندس يده في جيب صداره وهو يدمدم شاكرا:

ــ ولزومه إيه بس يا ست هانم، دا المرحوم كان يبقى خال أبويا لزم.

يقولها بزهو خاص وهو يستدير خارجا، ربما يلحظ البعض أنه عاود تحسس ما حطه في جيب صداره وهو على بعد خطوات من باب الدار، وربما يؤكد البعض للبعض الآخر همسا أن الشيخ حسنين عرف قيمة المبلغ فتنشط أو تتباطأ خطواته بحسب الحالة، لكنه في كل المرات كان يذهب.

تخرج ست الدار وخلفها الناعسة وبعض نساء العائلة وبناتها وربما بعض الكبار من رجالها الذين لا يرتاحون للمشي مع الشباب فارغ العقل أو الرجال الكسالى، تنظر هي إلى الحمير المربوطة في حديد النوافذ والأوتاد وجذوع شجر الكافور وتمصمص الشفاه عجبا ثم تنظر إلى الوجوه لائمة وشاكرة في نفس الوقت وتهمس:

ــ وتاعبين روحكم ليه بس يا ولاد؟ دي كل خطوة بحسنة.

يدمدمون ويغمغمون ويحتجون لإصرارها على الذهاب مشيا في كل مرة بينما هم مستسلمون، يتابع البعض خطواتها التي تقودهم من أقصر طريق في دروب الكفر إلى سكة المدافن، من يراها طالعة يقول إنها تشتد ويقوى عزمها لدرجة أن الذين يشاركونها المشوار يعجزون أحيانا عن مسايرتها أو اللحاق بها فيتابعونها عن قرب أو بعد حسب الطاقة والعزم، لكنهم في أغلب الحالات يتبادلون الحوار عنها:

ــ لأ ومتكحلة ومتحففة على سنجة عشرة.

ــ اللي يشوف وشها ولا يعرفهاش يقول حاطة أحمر وأبيض.

ــ وبتدب ع الأرض زي العون.

ــ أصل دي لحقت جوز الحمام بتلاتة أبيض ورطل السمن بقرش ونكلة، الخلق كانت عايشة بلاش.

ــ ما هي عايشة لحد النهاردة وبكره ف عز ما حدش شافه.

ــ البركة ف ولادها الأساتذة.

ــ وهو الراجل الكبير فايت لها شوية؟

ــ ح ينقطع نفسنا النهاردة.

ــ أرجع إن كنت عاوز ترجع وما تكسرش مقاديفنا.

على هذا النحو لا يكفون عن الرغي طوال الطريق، ربما يتأكد للبعض منهم أنها"تسمع كل ما يقال ولا ترد" لقد اعتادوا منها طوال الطريق إلى المدافن ألا تتكلم أو ترد على سؤال، حتى عندما يقابلهم الشيخ حسنين النعسان عائدا ويقول لها بصوته الخشن:

ــ رحت وقريت واستغفرت ووزعت اللي فيه القسمة ع العيال والفقها.

لا ترد، ربما لا تكلف نفسها عناء الالتفات إليه فيمضي طريقه وهو يبرطم أو يتحاور مع من يلهثون في أثرها على عجل، وعندما تصل ست الدار إلى قبر الرجل ترفع طرف جلبابها الأسود إلى ما فوق المقعدة، يظهر جلبابها الملون الذي تجلس عليه وقد كومت ما فاض من جلبابها الأسود في حجرها الملون، تحط كفها على الرخامة التي تحمل اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته بالشهرين العربي والأفرنجي، تمسح هي براحتها المفرودة على سطح الرخامة بحنو فينزاح ما قد يكون علق بها من رماد، يظهر الاسم جليا وواضحا، تخلع مداسها بيدها اليسرى وتتركه ثم تتربع في جلستها وتحط دماغها على جدار القبر، الذين يتابعونها يسمعونها تهمس بكلام وتحكي حكايات، ودائما بصوتها المهموس الذي لا يسمح لأحد بسماعه أو تفسيره، حتى في المرات التي كانوا يحيطونها من كل جانب ويتصنتون لم يتمكنوا من سماع عبارة كاملة أو لملمة معنى محدد يمكن أن يصير محورا لحديث بينهم بعد ذلك، كانت زياراتها إليه تطول فيتباعدون رجالا وحريما كل إلى قبر أب أو أم أو أخ أو أخت أو زوج أو عزيز لديه مات، يتناثرون نقاطا على أبواب القبور ويترحمون، وربما يبكي البعض منهم قبل أن يعود مع من عادوا يحومون حولها من بعيد أو قريب فيجدونها على نفس الحال التي كانت عليه، يختارون ركنا غير قريب منها وينتظرون حتى لا يقطعوا عليها الزيارة، تظل مكانها ولا يبدو عليها أنها شعرت بهم وقت الذهاب أو العودة، مسنودة برأسها المعصوب على جدار القبر تحكي وأناملها تربت على أجزاء اللافتة الرخامية برقة ولطف، كأنها يد أم مدربة حنون تتحرك على بدن طفل لها يغط في نوم هانئ عميق، ناعمة وهادئة تنهي طقوس الزيارة قبل

أن تتلفت حولها يمينا ثم يسارا كما لو كانت في صلاة وسلمت على الملائكة مودعة، لحظتها يتوقعون النداء المألوف:

ـ يا ولاد.

يسعون ناحيتها بخفة فتتساند على أقرب من تطوله يديها وهي تقف، تلبس مداسها وتنفض جلبابها الملون وينسدل ثوبها الأسود عليه، تخطو على مهل بعد أن تلقي على باب القبر نظرة مودعة، يتحركون أمامها وحولها ويسود صمت لا يسمع خلاله غير دبيب الأقدام الزاحفة وهي تخرج من دائرة المدافن إلى الطريق الترابي، ربما عند ساقية سيد ابن" المغدور" أو سبيل شريفة بنت "الخفيفة" تجرؤ واحدة أو واحد على طرح أول سؤال تتلوه أسئلة:

ـ كنتي بتقوليله إيه يا ست الستات؟

ـ أهو كلام.. اللي ف القلب.

ـ هو يسمع يا ست الكل؟

ـ بيسمع ويرد كمان..

ـ وهي أنتي لا سمح الله ناقصك حاجة؟

ـ اللي ناقصني بحكيله عليه.

ـ بس إحنا بنسمعك بتتكلمي ولا حدش بيعرف يفسر كلامك، هو أنتي بتقوليله إيه؟

ـ حاجات بيني وبينه.

ـ لحد دلوقت؟ بقى فيه حاجات بينك وبينه لحد دلوقت؟

يزدادون جرأة وهي تجاريهم بسماحة فتتنوع أسئلتهم وأجوبتها ولا يشعرون بطول الطريق حتى يصلوا إلى دار الناعسة وتجلس محاطة بهم، يتحدثون عن بعض ما سمعوه وكان بينها وبينه فتستعيد هي الزمان والأحداث وتحكي بحيوية وصحو وهم يتسمعون في شغف ودهشة، وربما يعلق بعض كبار السن منهم كاشفا للباقين كيف أن الزمان اختلف، لا تمل هي الحديث عنه ولا يشبعون، ودائما كانت تحكي لهم حكاية أو حكايات حصلت بينها وبينه في الزمن القديم تستدعي ضحكاتهم فيضحكون حتى تدمع بعض العيون من كثرة الضحكات، ربما يشعر الكثيرون منهم بنشوة غامضة رغم المشوار الطويل والتعب، وربما تتمدد هي بطولها فوق الحصير فينسلتون واحدا أثر الآخر من المكان ويتركونها ساعة القيلولة لترتاح، وربما يتواعدون على قضاء السهرة في دار الناعسة حول ست الدار وحكاياتها التي لا تنتهي عن الرجل الكبير وزمانه الخصيب الذي يعشقون استعادته حنينا يرضيها رغم أنه راح وانقضى وخلف الجديد.

إبداع ـ مايو 1989